

## متى دُونَ الحديث..؟

الفصل الأول: حول تدوين الحديث.

الفصل الثاني: ما دون في عصر الرسول ﷺ

وفي صدر الإسلام.

الفصل الثالث: آراء في التدوين.



## الفصل الأول

### حول تدوين الحديث...

#### ١ - الكتابة عند العرب قبيل الإسلام:

تدل الدراسات العلمية على أن العرب كانوا يعرفون الكتابة قبل الإسلام، فكانوا يؤرخون أهم حوادثهم على الحجارة، وقد أثبتت الأبحاث الأثرية ذلك بأدلة قاطعة، تعود إلى القرن الثالث الميلادي، وأكثر الآثار التي تحمل كتابات العرب كانت في الأطراف الشمالية للجزيرة العربية<sup>(١)</sup> حيث كان الاتصال وثيقاً بالحضارة الفارسية والرومية، ومما يذكر أن عدى بن زيد العبادي (-٣٥٥ق هـ) حين نما وأيفع طرحه أبوه في الكتاب حتى حذق العربية، ثم دخل ديوان كسرى، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى.<sup>(٢)</sup> وهذا يدل على وجود بعض الكتابيب في الجاهلية، يتعلم فيها الصبيان الكتابة والشعر وأيام العرب، ويشرف على هذه الكتابيب معلمون ذوو مكانة رفيعة، أمثال أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس، وبشر بن عبد الملك السكوني، وأبي قيس بن عبد مناف بن زهرة، وعمرو ابن زرارة المسمى؛ (الكاتب) وغيرهم<sup>(٣)</sup>، وقد استقدم أبو جفينة إلى المدينة ليعلم الكتاب<sup>(٤)</sup>، (وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية، وكان يعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون)<sup>(٥)</sup>.

وكان العرب يطلقون اسم (الكامل) على كل رجل يكتب، ويحسن الرمي، ويجيد السباحة<sup>(٦)</sup>، ولكن كثيراً من الشعراء كانوا يفخرون بحفظهم، وقوة

(١) انظر: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص ٢٤-٣٢ وقد فصل القول في هذا.

(٢) انظر: الأغاني ص ١٠١، ١٠٢ ج ٢.

(٣) انظر: كتاب المحبر ص ٤٧٥ وقد ذكرهم تحت عنوان أشراف المعلمين.

(٤) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري ص ٤٢ ج ٥.

(٥) فتوح البلدان ص ٤٥٩.

(٦) انظر: طبقات ابن سعد ص ١٣٦ قسم ٢ ج ٣ وعيون الأخبار ص ١٦٨ ج ٢ وفتوح البلدان ص ٤٥٩.

ذاكرتهم، بل إن بعضهم كان يخفى على الناس معرفته بالكتابة، ويخشى أن يكشف أحد أمره، وإذا ما كشف أمر أحدهم قال: «اكتتم علىّ فإنه عندنا عيب»<sup>(١)</sup>.

بعد هذا نستبعد أن يكون قول بعض المؤرخين: (دخل الإسلام وبمكة بضعة عشر رجلاً يكتب)<sup>(٢)</sup> - صورة دقيقة لحقيقة معرفة العرب بالكتابة قبيل الإسلام، ونستبعد أن يكون هذا على وجه الإحصاء والضبط، ومع هذا لا يباح لنا أن نغالى فى معرفة العرب للكتابة، ونذهب مذهب من ادعى كثرة الكتابة عند العرب فى الجاهلية، وكثرة الكاتبين القارئين، وقد حاول بعض المستشرقين وبعض الكاتبين العرب أن يدعموا رأيهم هذا بتأويل وصف الله تعالى للعرب (بالأميين) - فى قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] - بأنه (لا يعنى الأمية الكتابية ولا العلمية، إنما يعنى الأمية الدينية، أى أنه لم يكن لهم من قبل القرآن الكريم كتاب دينى، ومن هنا كانوا أميين دينياً، ولم يكونوا مثل (أهل الكتاب) من اليهود والنصارى الذين كان لهم التوراة والإنجيل)<sup>(٣)</sup> وحمل هذا اللفظ على هذا المعنى من غير قرينة لا مسوغ له، لأنه يقتضى التفريق بين تفسير الأميين وهم العرب (جهلة الشريعة) وتفسير ما وصف به الرسول ﷺ من الأمية - فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧] بأنه الذى لا يعرف القراءة والكتابة، ولا داعى لهذا التفريق فى المعنى، ولا مؤيد له فلا بد من حمل اللفظ على أحد المعنيين، والأصل فيه عدم معرفة القراءة والكتابة<sup>(٤)</sup>.

(١) الأغاني ص ١١٦ ج ١٦ هذا ما روى عن ذى الرمة.

(٢) انظر: مثلاً على هذا ما جاء فى قبول الأخبار ص ٦٤، وانظر: عبارة المؤرخين التى يرددونها: (وكانت

الكتابة فى العرب قليلة) ومثال هذا فى طبقات ابن سعد ص ٨٣ قسم ٢ ج ٣ وص ٧٧ قسم ٢ ج ٣.

(٣) مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ص ٤٥.

(٤) لقد اختار الدكتور صارم الدين الأسد تفسير (الأميين) بمعنى جهلة الشريعة، أى الأمية الدينية لا الأمية المتعلقة بالقراءة والكتابة، ودعم رأيه هذا بشواهد فصل فيها، انظر ذلك فى كتابه مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ص ٤٥. وتعرض الدكتور صبحى الصالح فى كتابه «علوم الحديث ومصطلحه» لهذا التفسير الذى اعتمد عليه المستشرقون فى زعمهم أن الرسول ﷺ كان كاتباً قارئاً، وأن وصفه بالأمية =

على أن الرسول الكريم ﷺ بين الأمية المعنية بما لا يرقى إليه الشك، فقد أخرج الشيخان وأصحاب السنن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا...»<sup>(١)</sup>.

## ٢- الكتابة في العصر النبوي وصدر الإسلام:

مما لا شك فيه أن الكتابة انتشرت في عهد النبي ﷺ على نطاق أوسع مما كانت عليه في الجاهلية، فقد حث القرآن الكريم على التعلم، وحض الرسول ﷺ على ذلك أيضاً، واقتضت طبيعة الرسالة أن يكثر المتعلمون، القارئون، الكاتبون، فالوحي يحتاج إلى كتاب، وأمور الدولة من مراسلات وعهود ومواثيق تحتاج إلى كتاب أيضاً، وقد كثرت الكتابات بعد الإسلام فعلا ليسدوا حاجات الدولة الجديدة، فكان للرسول كتاب الوحي بلغ عددهم أربعين كتاباً، وكتاب للصدقة، وكتاب للمداينات والمعاملات، وكتاب للرسائل يكتبون باللغات المختلفة<sup>(٢)</sup>. وإن ما ذكره المؤرخون من أسماء كتاب رسول الله ﷺ لم يكن على سبيل الحصر، بل ذكروا من داوم على الكتابة بين يده، ويظهر هذا واضحاً في قول المسعودي (إنما ذكرنا من أسماء كتابه ﷺ من ثبت على كتابته، واتصلت أيامه فيها، وطالت مدته، وصحت الرواية على ذلك من أمره دون من كتب الكتاب والكتابين والثلاثة، إذ كان لا يستحق بذلك أن يسمى كاتباً، ويضاف إلى جملة كتابه<sup>(٣)</sup>).

= كوصف العرب بها- لا ينافي معرفة القراءة والكتابة. انظر كتابه الصفحة ٢-٤ وهوامشها، وقد رد عليهم رداً جليلاً.

(١) وتسمة الحديث (وهكذا يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين) انظر: فتح الباري ص ٢٨، ٢٩ ج ٥ رمضان، ورأى جمهور المحدثين على أن المراد بالأمة الأمة العربية آنذاك، والمراد من الأمية، أمية القراءة والكتابة، وقد قيل للعرب أميون لأن الكتابة كانت فيهم قليلة، قال تعالى: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ» [الجمعة: ٢]، ولا يرد على ذلك أنه كان فيهم من يكتب ويحسب لأن الكتابة كانت فيهم قليلة ونادرة آنذاك والمراد بالحساب هنا حساب النجوم وتسييرها ولم يكونوا يعرفون من ذلك أيضاً إلا اليسير. انظر: تفصيل هذا في فتح الباري ص ٢٨، ٢٩ ج ٥.

(٢) راجع المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عرب وعجم لمحمد بن علي بن حديد الأنصاري. مخطوط مكتبة الأوقاف بحلب، تحت رقم (٢٧٠٠) وقد فصل القول في ذلك في ص ١٦-٤٠.

(٣) التنبيه والإشراف ص ٢٤٦.

وقد كثر الكاتيون بعد الهجرة عندما استقرت الدولة الإسلامية، فكانت مساجد المدينة التسعة إلى جانب مسجد رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup> محط أنظار المسلمين، يتعلمون فيها القرآن الكريم، وتعاليم الإسلام، والقراءة والكتابة، وقد تبرع المسلمون الذين يعرفون الكتابة والقراءة بتعليم إخوانهم، وأرجح أنه كان من أوائل هؤلاء المعلمين سعد بن الربيع الخزرجي أحد النقباء الاثني عشر<sup>(٢)</sup>، وبشير بن سعد بن ثعلبة<sup>(٣)</sup>، وأبان بن سعيد بن العاص<sup>(٤)</sup>، وغيرهم رضوان الله عليهم.

وكان إلى جانب هذه المساجد كتاتيب يتعلم فيها الصبيان الكتابة والقراءة، إلى جانب القرآن الكريم<sup>(٥)</sup>. ولا يفوتنا أن نذكر أثر غزوة (بدر) في تعليم صبيان المدينة، حينما أذن رسول الله ﷺ لأسرى بدر بأن يفدى كل كاتب منهم نفسه

- (١) انظر: مالك الأَبصار في ممالك الأمصار ص ١٣١.
- (٢) المتوفى سنة (٣) هـ انظر: طبقات ابن سعد ص ٧٧، ١٤١ قسم ٢ ج ٣.
- (٣) المتوفى سنة «١٢» هـ انظر: طبقات ابن سعد ص ٨٣ قسم ٢ ج ٣ وتهذيب التهذيب ص ٤٦٤ ج ١ والإصابة ص ٦٣ ج ١.
- (٤) انظر: الإصابة ص ١٠، ١١ ج ١ والمصباح المضيء ص ١٦ وقد اختلف في وفاة أبان بن سعيد، فقيل توفي سنة «١٣» هـ وقيل سنة «١٥» هـ، وقيل غير ذلك والصواب أنه عاش إلى خلافة عثمان، وأنا أرجح هذا لأنه كان أحد الصحابة الذين نسخوا المصاحف مع زيد بن ثابت في عهد عثمان رضي الله عليهم جميعا، انظر: صحيح البخاري بحاشية السندی ص ٢٢٥، ٢٢٦ ج ٣ وكتابتنا «زيد بن ثابت الأنصاري» ص ٣٥.
- (٥) كتب جولد تسيهر مقالا هاما في دائرة معارف الأديان والأخلاق عن التعليم الأولى عند المسلمين، وقد حاول أن يثبت أن كتاب تعليم القرآن ومبادئ الدين الإسلامي قد أنشئ في عهد مبكر، وأنه يرجع إلى صدر الإسلام، وقد دعم رأيه بالاسانيد الآتية:
- أ- أرسلت أم سلمة إحدى زوجات الرسول ﷺ مرة إلى معلم كتاب تطلب منه أن يرسل لها بعض تلاميذ كتابه ليساعدها في ندف الصوف وغزله.
- ب- كان عمر بن ميمون يحفظ الصيغة التي تقي الإنسان شر العين، وقد أسندها إلى سعد بن أبي وقاص الذي كان يعلمها أولاده، ويكتبها لهم كما يفعل المدرس مع تلاميذه.
- ج- مر «ابن عمر» و«أبو أسيد» في مناسبة ما بكتاب، فلفنا إليهما أنظار التلاميذ.
- د- كان اللوح المخصص للكتابة موجودا في وقت مبكر جدا، فلقد روى عن أم الدرداء أنها كتبت على لوح من هذا النوع عبارات في الحكمة، ليقلدها تلميذ كانت تعلمه الكتابة والقراءة» انظر: تاريخ التبرية الإسلامية للدكتور أحمد شلبي طبعة بيروت سنة ٩٥٤ ص ٢٦.
- وتضيف إلى هذا - مما يؤكد وجود الكتاتيب - ما رواه عثمان بن عبيد الله، قال: رأيت أبا هريرة يصفر لحيته ونحن في الكتاب. انظر: طبقات ابن سعد ص ٥٩ قسم ٢ ج ٤. وقد تعلم زيد بن ثابت في أحد هذه الكتاتيب: انظر: مسند الإمام أحمد ص ٢٥٩ ج ٥.

بتعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة والقراءة<sup>(١)</sup>، ولم يقتصر تعليم الكتابة والقراءة على الذكور فقط، بل كانت الإناث تتعلمن هذا في بيوتهن فقد روى أبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة عن الشفاء بنت عبد الله أنها قالت: (دخل عليّ رسول الله ﷺ، وأنا عند حفصة، فقال لي: «ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة؟»<sup>(٢)</sup>).

ثم اتسع نطاق التعليم، وانتشر في الآفاق الإسلامية، بانتشار الصحابة رضوان الله عليهم، وكثرت حلقات العلم، وانتظمت في المساجد<sup>(٣)</sup>، وأضحت بعض الحلقات تضم نيفا وألفاً من طلاب العلم<sup>(٤)</sup>، وكثر المعلمون<sup>(٥)</sup>، وانتشرت الكتابات في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، وغصت بالصبيان، وضاعت بهم حتى اضطر الضحاك بن مزاحم معلم الصبيان ومؤدبهم إلى أن يطوف على حمار ليشرح على طلاب مكتبه، الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف صبي<sup>(٦)</sup>، وكان لا يأخذ أجراً على عمله<sup>(٧)</sup>.

(١) انظر: طبقات ابن سعد ص ١٤ قسم ١ ج ٢.

(٢) سنن أبي داود ص ٣٣٧ ج ٢ والنملة هي قروح تخرج في الجنب. وفي الحديث عن أنس قال: «رخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين والحمة والنملة.» والحمة -بضم الحاء وفتح الميم- هي السم انظر: صحيح مسلم ص ١٧٢٥ حديث ٥٨ ج ٤.

(٣) مما يذكر عن النشاط العلمي وانتظام الحلقات أن أبا الدرداء رضى الله عنه «٣٢٢هـ» كان إذا صلى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريفاً، ويقف هو في المحراب يرمقهم بصره، فإذا غلط أحدهم، رجع إلى عريفهم، وإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء فسأله عن ذلك» انظر غاية النهاية في طبقات القراء ص ٦٠٦ ج ١، وتهذيب التاريخ الكبير لابن عساکر ص ٦٩ ج ١.

(٤) قال مسلم بن مشكم «قال أبو الدرداء: اعدد من يقرأ عندي القرآن، فعددتهم بأمره ألفاً وستمئة ونيفا، وكان لكل عشرة منهم مقرئ، وأبو الدرداء يكون عليهم قائماً إذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبي الدرداء.» انظر: غاية النهاية في طبقات القراء ص ٦٠٧ ج ١ ونحوه في تهذيب التاريخ الكبير لابن عساکر ص ٦٩ ج ١. وقد بلغت حلقات العلم في عهد عبد الملك بن مروان درجة عظيمة، فقد رأى في المسجد الحرام حلقات كثيرة لعطاء ولسعید بن جبیر ولیمون بن مهران ولکحول ولغيرهم، فأعجب بهم، وحث أحياء قريش على المحافظة على العلم. انظر: تفصيل هذا في المحدث الفاضل ص ٣٥، ٣٦.

(٥) ذكر أبو علي أحمد بن عمر بن رسته كثيراً من المعلمين في هذا العصر، انظر: الأعلاق النفيسة المجلد السابع صفحة ٢١٦، ٢١٧ وقد ذكرهم تحت عنوان صناعات الأشراف... وانظر: كتاب المجبر حيث ذكر كثيراً من المعلمين وبينهم بالتفصيل في الصفحات: ٣٧٩ والصفحات: ٤٧٥-٤٧٧.

(٦) انظر: معجم الأدباء طبعة مصر ص ١٦ ج ١٢، وقد توفي الضحاك بن مزاحم سنة «١٠٥هـ».

(٧) انظر: الأعلاق النفيسة ص ٢١٦.

وقد ازدادت الحركة العلمية في أواخر القرن الأول، وظهرت الندوات التي تدل على آثار النهضة العلمية، فقد كان (عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي قد اتخذ بيتاً، فجعل فيه شطرنجات، وندرات، وقرقات<sup>(١)</sup>)، ودفاتر فيها من كل علم، وجعل في الجدار أوتاداً، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها، ثم جر دفترها فقرأه، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم<sup>(٢)</sup>).

فإذا رأينا - بعد ذلك - أن الحديث الشريف لم يدون تدويناً رسمياً في عهد الرسول ﷺ، كما دون القرآن الكريم - فلا بد لنا من البحث عن السبب الذي أدى إلى عدم تدوينه في عصره ﷺ.

ونحن في بحثنا هذا لا يمكننا أن نستسلم لتلك الأسباب التقليدية التي اعتاد الكاتبون أن يعللوا بها عدم التدوين، ولا نستطيع أن نوافقهم على ما قبلوه من أن قلة التدوين في عهده ﷺ، تعود قبل كل شيء إلى ندرة وسائل الكتابة، وقلة الكتاب، وسوء كتابتهم<sup>(٣)</sup> - لا يمكننا أن نسلم بهذا بعد أن رأينا نيفا وثلاثين كاتباً يتولون كتابة الوحي للرسول الكريم ﷺ وغيرهم يتولون أموره الكتابية الأخرى، ولا يمكننا أن نعتد بقلة الكتاب، وعدم إتقانهم لها، وفيهم المحسنون المتقنون أمثال زيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص، ولو قبلنا جدلاً ما ادعوه من ندرة وسائل الكتابة وصعوبة تأمينها، لكفى في الرد عليهم أن المسلمين دونوا القرآن الكريم ولم يجدوا في ذلك صعوبة، فلو أرادوا أن يدونوا الحديث ما شق عليهم تحقيق تلك الوسائل، كما لم يشق هذا على من كتب الحديث بإذن رسول الله ﷺ، فلا بد من أسباب أخرى، وإنا لنرى تلك الأسباب من خلال الآثار الثابتة عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين، وسرى أن تدوين الحديث مر بمراحل منتظمة حققت حفظه، وصانته من العبث، وقد تضامنت الذاكرة والأقلام، وكاننا

(١) الندرات: جمع نرد، ما يعرف اليوم بالضاولة. وقرقات: جمع قرق وهي لعبة للصبيان.

(٢) الأغاني ص ٣٥٣ ج ٤.

(٣) انظر: تأويل مختلف الحديث، قال: (وكان غيره - ابن عمرو بن العاص - من الصحابة أميين لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجي) ص ٣٦٦. إن هذا يتنافى مع ما بيناه من تعلم المسلمين للكتابة، فتعميم ابن قتيبة هذا لا يستند إلى دليل. وانظر: مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٢.

جنبًا إلى جنب في خدمة الحديث الشريف، ونستعرض الآن تلك الآثار التي تلقى لنا بعض الضوء على حقيقة تدوين السنة.

### أولاً: ما روى عن رسول الله ﷺ في الكتابة

أ- ما روى من كراهة الكتابة:

١- روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه<sup>(١)</sup>» وهذا الحديث أصح ما ورد عن رسول الله ﷺ في هذا الباب.

٢- وقال أبو سعيد الخدري: (جهدنا بالنبي ﷺ أن يأذن لنا في الكتاب فأبى) وفي رواية عنه قال: (استأذنا النبي ﷺ في الكتابة فلم يأذن لنا<sup>(٢)</sup>).

٣- روى عن أبي هريرة أنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث، فقال: «ما هذا الذي تكتبون؟». قلنا: أحاديث نسمعها منك. قال: «كتاب غير كتاب الله؟! أتدرون؟ ماضل الأمم قبلكم إلا بما اكتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى<sup>(٣)</sup>».

ب- ما روى من إباحة الكتابة:

١- قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ، أريد حفظه فنهتني قريش، وقالوا تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأوما بأصبعه إلى فيه وقال: «اكتب فوالذي نفسى بيده ما خرج منه إلا حق<sup>(٤)</sup>».

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ص ١٢٩ ج ١٨ وجامع بيان العلم وفضله ص ٦٣ ج ١ .

(٢) للمحدث الفاضل نسخة دمشق ص ٥ ج ٤ . والإلماع ص ٢٨ ونحوه في تقييد العلم ص ٣٢، ٣٣ .

(٣) تقييد العلم ص ٣٤ .

(٤) سنن الدارمي ص ١٢٥ ج ١ ونحوه في ص ١٢٦ ج ١ ونحوه في تقييد العلم بطرق كثيرة ص ٧٤-٨٣ .

وفي جامع بيان العلم ص ٧١ ج ١ والإلماع ص ٢٧: ب .

٢- قال أبو هريرة رضى الله عنه: (ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب<sup>(١)</sup>).

٣- روى عن أبي هريرة أن رجلاً من الأنصار كان يشهد حديث رسول الله ﷺ فلا يحفظه، فيسأل أبا هريرة فيحدثه، ثم شكوا قلة حفظه إلى الرسول ﷺ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: «استعن على حفظك بيمينك<sup>(٢)</sup>».

٤- روى عن رافع بن خديج أنه قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نسمع منك أشياء، أفنكتبها؟ قال: «اكتبوا ولا حرج<sup>(٣)</sup>».

٥- روى عن أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قيدوا العلم بالكتاب<sup>(٤)</sup>».

٦- روى عن رسول الله ﷺ أنه كتب كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمر بن حزم وغيره<sup>(٥)</sup>.

٧- روى عن أبي هريرة أنه لما فتح الله عن رسوله ﷺ مكة قام الرسول ﷺ وخطب في الناس، فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه، فقال:

(١) فتح الباري ص ٢١٧ ج ١.

(٢) تقييد العلم ص ٦٥، ٦٦ وفي الجامع لأخلاق الراوى ص ٥٠: أ وقد أخرجه الترمذى أيضاً من طريق أبي هريرة انظر: توضيح الأفكار ص ٣٥٣ ج ٢.

(٣) تقييد العلم ص ٧٢، ٧٣، والمحدث الفاصل ص ٣: ب ج ٤ مخطوطة دمشق وانظر: توضيح الأفكار ص ٣٥٣ ج ٢. وقد ضعف السيد رشيد رضا صاحب المنار هذا الحديث انظر: مجلة المنار: ٧٦٣/١٠ وله رأى فى الأحاديث التى تسمح بالكتابة انظر: ص ٧٦٥، ٧٦٦ ج ١٠ من المجلة.

(٤) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٤٤: أ، وتقييد العلم ص ٦٩، وجامع بيان العلم ص ٧٢ ج ١، وقد ضعف السيد محمد رشيد رضا هذا الحديث لأن فى سنده عبد الحميد بن سليمان وقد تكلم فيه الذهبى. كما ضعفه من طريق عبد الله بن المؤمل الذى قال فيه الإمام أحمد (أحاديثه مناكير). انظر: مجمع الزوائد ص ١٥٢ ج ١. أقول: إلا أن هذا الحديث روى من طريق إسماعيل بن يحيى عن ابن أبى ذؤيب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ولا يظن فيه تفرده به انظر: تقييد العلم ص ٦٩، والسيد رشيد رضا ضعف الحديث من طريقه الأربلى فلا يظن برواية إسماعيل بن يحيى هذه. انظر: مجلة المنار ص ٧٦٦-٧٦٣ ج ١٠.

(٥) انظر: جامع بيان العلم وفضله: ص ٧١ ج ١.

يا رسول الله ، اكتبوا لى ، فقال: اكتبوا له<sup>(١)</sup> «قال أبو عبد الرحمن (عبد الله ابن أحمد): ليس يروى فى كتابة الحديث شىء أصح من هذا الحديث، لأن النبى ﷺ أمرهم: قال: «اكتبوا لأبى شاه<sup>(٢)</sup>».

٨- روى عن ابن عباس أنه قال: لما اشتد بالنبى ﷺ وجعه قال: «يتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده» قال عمر: إن النبى ﷺ غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا. فاختلفوا، وكثر اللغط. قال: «قوموا عنى، ولا ينبغي عندى التنازع<sup>(٣)</sup>» إن طلب الرسول هذا واضح فى أنه أراد أن يكتب شيئاً غير القرآن، وما كان سيكتبه هو من السنة، وإن عدم كتابته لمرضه لا ينسخ أنه قد هم به، وكان فى آخر أيام حياته عليه الصلاة والسلام، فيفهم من هذا إباحته عليه الصلاة والسلام الكتابة فى أوقات مختلفة، ولمواضيع كثيرة، فى مناسبات عدة، خاصة وعامة.

وإذا كانت الأخبار الدالة على إباحة الكتابة منها خاص كخبر أبى شاه، فإن منها أيضاً ما هو عام لا سبيل إلى تخصيصه، كسماحه لعبد الله بن عمرو بالكتابة وللرجل الأنصارى الذى شكاه سوء حفظه. ويمكن أن نستشهد فى هذا المجال بخبر أنس ورافع بن خديج وإن تكلم فيهما، لأن طرقهما كثيرة يقوى بعضها بعضاً؛ وللعلماء مع هذا آراء فى هذه الأخبار سأوجزها فيما يلى:

حاول العلماء أن يوفقوا بين ما ورد من نهى عن الكتابة وما ورد من إباحة لها، وترجع آراؤهم إلى أربعة أقوال:

الأول: قال بعضهم إن حديث أبى سعيد الخدرى موقوف عليه فلا يصلح للاحتجاج به. وروى هذا رأى عن البخارى وغيره<sup>(٤)</sup>، إلا أننا لا نسلم بهذا

(١) مسند الإمام أحمد ص ٢٣٢ ج ١٢ وفتح البارى ص ٢١٧ ج ١، وجامع بيان العلم ص ٧٠ ج ١ رتقييد العلم ص ٨٦.

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٢٣٥ ج ١٢.

(٣) فتح البارى ص ٢١٨ ج ١ وصحيح الإمام مسلم ص ١٢٥٧، ١٢٥٩ ج ٣ وفى طبقات ابن سعد ص ٣٦، ٣٧ ج ٢.

(٤) انظر: فتح البارى ص ٢١٨ ج ١، وانظر: الباعث الحثيث ص ١٤٨، وتوضيح الأفكار ص ٣٥٣ ج ٢.

وتدريب الراوى ص ٢٨٧ ومنهج ذوى النظر ص ١٤٢.

لأنه ثبت عند الإمام مسلم، فهو صحيح، ويؤيد صحته ويعضده ما رويناه عن  
أبي سعيد رضى الله عنه: «استأذنت النبي ﷺ أن أكتب الحديث، فأبى أن يأذن  
لى<sup>(١)</sup>».

الثانى: أن النهى عن الكتابة إنما كان فى أول الإسلام مخافة اختلاط الحديث  
بالقرآن، فلما كثر عدد المسلمين، وعرفوا القرآن معرفة رافعة للجهالة، وميزوه من  
الحديث - زال هذا الخوف عنهم، فنسخ الحكم الذى كان مترتباً عليه، وصار الأمر  
إلى الجواز<sup>(٢)</sup>. وفى هذا قال الراهمزمزى: (وحدیث أبى سعید «حرصنا أن يأذن لنا  
النبي ﷺ فى الكتاب فأبى» أحسب<sup>(٣)</sup> أنه كان محفوظاً فى أول الهجرة، وحين  
كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن<sup>(٤)</sup>) والقول بالنسخ أحد المعنيين اللذين فهمها  
ابن قتيبة من تلك الأخبار. فقال: (أحدهما: أن يكون من منسوخ السنة بالسنة  
كأنه نهى فى أول الأمر أن يكتب قوله، ثم رأى بعد لما علم أن السنن تكثر وتفوت  
الحفظ أن تكتب وتقتيد)<sup>(٥)</sup>، ورأى هذا رأى كثير من العلماء، وذهب إليه العلامة  
المحقق الأستاذ أحمد محمد شاکر<sup>(٦)</sup>. فبعد أن دعم رأيه بالأخبار التى تبيح الكتابة  
قال: (كل هذا يدل على أن حديث أبى سعید - «لا تكتبوا عنى ومن كتب عنى غير  
القرآن فليمحه» - منسوخ، وأنه كان فى أول الأمر، حين خيف اشتغالهم عن  
القرآن، وحين خيف اختلاط غير القرآن بالقرآن، وحديث أبى شاه فى أواخر حياة  
النبي ﷺ، وكذلك أخبار أبى هريرة - وهو متأخر الإسلام - أن عبد الله بن عمرو  
كان يكتب، وأنه هو لم يكن يكتب: يدل على أن عبد الله كان يكتب بعد إسلام  
أبى هريرة، ولو كان حديث أبى سعید فى النهى متأخراً عن هذه الأحاديث فى  
الإذن والجواز لعرف ذلك عند الصحابة يقيناً صريحاً<sup>(٧)</sup>).

(١) تقييد العلم ص ٣٢، ٣٣.

(٢) انظر: توضيح الأفكار ص ٣٥٣، ٣٥٤ ج ٢.

(٣) فى الأصل (فأحسبه) وما أثبتناه أصح لغة.

(٤) المحدث الفاصل ص ٧١: أ.

(٥) تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٥.

(٦) انظر: الباعث الحثيث ص ١٤٨.

(٧) المرجع السابق ص ١٤٩.

ويمكن أن نلحق هنا الرأي الذي يقول: إن النهي إنما كان عن كتابة الحديث مع القرآن في صحيفة واحدة، لأنهم كانوا يسمعون تأويل الآية، فرموا كتبوه معه، فنهوا عن ذلك لخوف الاشتباه<sup>(١)</sup>.

الثالث: أن النهي في حق من وثق بحفظه وخيف اتكاله على الكتابة، والإذن في حق من لا يوثق بحفظه كأبي شاه<sup>(٢)</sup>.

الرابع: أن يكون النهي عاما وخص بالسماح له من كان قارئاً كاتباً مجيداً لا يخطئ في كتابته، ولا يخشى عليه الغلط، كعبد الله بن عمرو الذي أمن عليه عليه السلام كل هذا، فأذن له<sup>(٣)</sup>. وهذا هو المعنى الآخر الذي فهمه ابن قتيبة من تلك الأخبار.

ورأينا في هذه الأخبار هو صحة ما روى عن أبي سعيد من النهي، وصحة ما ورد عن غيره من إباحة الكتابة، فنحن لا نقول بوقف خبر أبي سعيد عليه. فالرأي الأول مردود، ويمكن أن تكون جميع هذه الآراء الثلاثة صواباً، فنهى عليه الصلاة والسلام عن كتابة الحديث الشريف مع القرآن في صحيفة واحدة خوف الالتباس، وربما يكون نهيه عن كتابة الحديث على الصحف أول الإسلام حتى لا يشغل المسلمون بالحديث عن القرآن الكريم، وأراد أن يحفظ المسلمون القرآن في صدورهم وعلى الألواح والصحف والعظام توكيداً لحفظه، وترك الحديث للممارسة العملية، لأنهم كانوا يطبقونه: يرون الرسول فيقلدونه، ويسمعون منه فيتبعونه، وإلى جانب هذا سمح لمن لا يختلط عليه القرآن بالسنة أن يدون السنة كعبد الله بن عمرو، وأباح لمن يصعب عليه الحفظ أن يستعين بيده حتى إذا حفظ المسلمون قرآنهم وميزوه عن الحديث جاء نسخ النهي بالإباحة عامه، وإن وجود علة من علة النهي السابقة لا ينفي وجود غيرها ولا يتعارض معه، كما أن وجود علة النهي لا ينفي تخصيص هذا النهي بالسماح لبعض من لا تتحقق فيهم هذه

(١)، (٢) انظر: فتح المغيب ص ١٨ ج ٣ وانظر: توضيح الأفكار ص ٣٥٤ ج ٢.

(٣) انظر: تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٥، ٣٦٦.

العلة. فالنهي لم يكن عاما، والإباحة لم تكن عامة في أول الإسلام، فحيثما تحققت علة النهي منعت الكتابة، وحيثما زالت أبيحت الكتابة.

وأرى في حديث أبي شاه وفي حديث ابن عباس: «إيتوني بكتاب..» إذنا عاما، وإباحة مطلقة للكتابة، وعلى هذا لا تعارض بين جميع تلك الروايات فقد سهل التوفيق بينها وتبين وجه الصواب. وانتهى أمر رسول الله ﷺ بإباحة الكتابة، وسنرى فيما بعد بعض ما دون في عهده ﷺ.

### ثانياً: كتابة الحديث في عصر الصحابة

مع ما روى عن النبي ﷺ من إباحة للكتابة، ومع ما كتب في عهده من الأحاديث على يدي من سمح لهم بالكتابة - نرى الصحابة يحجمون عن الكتابة، ولا يقدمون عليها في عهد الخلافة الراشدة، حرصاً منهم على سلامة القرآن الكريم والسنة الشريفة، فنجد بينهم رضوان الله عليهم من كره كتابة السنة، ومن أباحها، ثم ما لبث الأمر أن كثر المجيزون للكتابة، بل روى عن بعض من كره الكتابة أولاً إباحته لها أخيراً، وذلك حين زالت علة الكراهة.

روى الحاكم بسنده عن القاسم بن محمد عن عائشة رضی الله عنها قالت: جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ، وكان<sup>(١)</sup> خمسمائة حديث، فبات ليلة يتقلب كثيراً.. فلما أصبح قال: (أى بنية، هلمى الأحاديث التي عندك، فجئته بها، فدعا بنار فحرقها<sup>(٢)</sup>).

وهذا عمر بن الخطاب يفكر في جمع السنة، ثم لا يلبث أن يعدل عن ذلك: (عن عروة - بن الزبير - أن عمر بن الخطاب رضی الله عنه أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي ﷺ في ذلك، فأشاروا عليه بأن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: إني كنت أريد أن

(١) في الأصل (كانت) وما أثبتناه أصح لتستقيم العبارة.

(٢) تذكروا الحفاظ ص ٥ ج ١.

أكتب السنن، وإنى ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً<sup>(١)</sup>، وفى رواية عن طريق مالك ابن أنس أن عمر قال عندما عدل عن كتابة السنة: «لا كتاب مع كتاب الله<sup>(٢)</sup>».

وكان خوف عمر من إقدامه على كتابة السنة أن ينكب المسلمون على دراسة غير القرآن ويهملوا كتاب الله عز وجل<sup>(٣)</sup>، ولذلك نرى عمر رضى الله عنه يمنع الناس من أن يتخذوا كتاباً مع كتاب الله، وينكر إنكاراً شديداً على من نسخ كتاب (دانيال) ويضربه ويقول له: (انطلق فامحه.. ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهنكك عقوبة<sup>(٤)</sup>) ولهذا نراه يخطب فى الناس قائلاً: (أيها الناس، إنه قد بلغنى أنه قد ظهرت فى أيديكم كتب، فأحجها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا ييقن أحد عنده كتاب إلا أتانى به، فأرى فيه رأى - قال - فظنوا أنه يريد أن<sup>(٥)</sup> ينظر فيها، ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار ثم قال: «أمنية كأمنية أهل الكتاب<sup>(٦)</sup>» كما أنه كتب إلى الأمصار (من كان عنده منها شيء فليمحه<sup>(٧)</sup>).

كل هذا يدل على خشية عمر من أن يهمل كتاب الله أو أن يضاهى به كتاب غيره، ونحن نرى عمر نفسه يأبى أن يبقى رأيه مكتوباً ويأبى إلا أن يحوه، فعندما طعن استدعى طبيياً، فعرف دنو أجله، فنادى ابنه قائلاً: «يا عبد الله ابن عمر، ناولنى الكتف، فلو أراد الله أن يمضى ما فيه أمضاه، فقال له ابن عمر: أنا أكفيك محوها، فقال: لا والله، لا يحوها أحد غيرى»، فمحاها عمر بيده، وكان فيها فريضة الجلد<sup>(٨)</sup>.

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٦٤ ج ١، ونحوه فى تقييد العلم ص ٥٠، وطبقات ابن سعد ص ٢٠٦ قسم ١ ج ٣.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ص ٦٤ ج ١.

(٣) انظر: تقييد العلم ص ٥٠.

(٤) تقييد العلم ص ٥٢ ونحوه مختصراً فى جامع بيان العلم ص ٤٢ ج ٢، وفى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٤٦: ب.

(٥) زدنا (أن) على الأصل لتستقيم العبارة.

(٦) تقييد العلم ص ٥٢، رواه محمد بن القاسم.

(٧) تقييد العلم ص ٥٣ وجامع بيان العلم وفضله ص ٦٥ ج ١.

(٨) طبقات ابن سعد ص ٢٤٧ قسم ٢ ج ٣.

ونرى عمر نفسه حين يأمن حفظ القرآن، يكتب بشيء من السنة إلى بعض عماله وأصحابه (عن أبي عثمان «النهدى» قال: كنا مع عتبة بن فرقد، فكتب إليه عمر بأشياء يحدثه عن النبي ﷺ، فكان فيما كتب إليه: إن رسول الله ﷺ قال: «لا يلبس الحرير في الدنيا إلا من ليس له في الآخرة منه شيء إلا هكذا، وقال بأصبعه السبابة والوسطى». قال أبو عثمان: فرأيت أنها أزرار الطيالة حين رأينا الطيالة<sup>(١)</sup>).

وروى عن عبد الله بن مسعود كراهيته لكتابة الحديث الشريف: (عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال: جاء علقمة بكتاب من مكة أو اليمن، صحيفة فيها أحاديث في أهل البيت: بيت النبي ﷺ، فاستأذنا على عبد الله، فدخلنا عليه، قال: فدفعنا إليه الصحيفة، قال: فدعا الجارية، ثم دعا بطست فيه ماء، فقلنا له يا أبا عبد الرحمن، انظر فيها، فإن فيها أحاديث حسانا. قال: فجعل يميثها<sup>(٢)</sup> فيها ويقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بما سواه<sup>(٣)</sup>).

إلا أن هناك رواية تنص على أن ما في الصحيفة كان من كلام أبي الدرداء وقصصه،<sup>(٤)</sup> وفي رواية قال أحد الرواة: (يرى أن هذه الصحيفة أخذت من أهل الكتاب، فلهذا كره عبد الله النظر فيها<sup>(٥)</sup>) ولا يمكننا أن نجزم بأن ما في تلك الصحيفة كان من القصص أو مما أخذ عن أهل الكتاب، لأنه ثبت عن الأسود ابن هلال أنه قال: (أتى عبد الله ب صحيفة فيها حديث، فدعا بماء فمحاها، ثم غسلها، ثم أمر بها فأحرق، ثم قال: أذكر الله رجلا يعلمها عند أحد إلا أعلمني

(١) مسند الإمام أحمد ص ٢٦١ ج ١.

(٢) مائه: مرسه، أي فركه ليذوب في الماء وتتفرق أجزاءه.

(٣) تقييد العلم ص ٥٤ وورد عنه النهي عن كتابة ما سوى القرآن عندما علم أن بعضهم يكتب كلامه انظر: سنن الدارمي ص ١٢٥ ج ١.

(٤) انظر: تقييد العلم ص ٥٤، ٥٥.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ص ٦٦ ج ١ ونحو هذا في سنن الدارمي ص ١٢٤ ج ١.

به، والله لو أعلم أنها بدير هند لبلغتها، بهذا أهلك أهل الكتاب قبلكم حين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون<sup>(١)</sup>، إن تصرف ابن مسعود يدل على أنه خشى أن يشتغل الناس بكتابة السنة ويدعوا القرآن، أو أن يشتغلوا بغير القرآن الكريم، ونراه يكتب بعض السنة بيده حين زالت علة المنع، فعن مسعر عن معن قال: (أخرج إلى عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابا وحلف لى أنه خط أبيه بيده<sup>(٢)</sup>).

وهذا على رضى الله عنه يخطب فى الناس قائلا: (أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاها، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم<sup>(٣)</sup>).

وأبى زيد بن ثابت أن يكتب عنه مروان بن الحكم<sup>(٤)</sup> وقال: (لعل كل شىء حدثتكم به ليس كما حدثتكم<sup>(٥)</sup>) وفى رواية قال: (إن رسول الله ﷺ أمرنا ألا نكتب شيئا من حديثه<sup>(٦)</sup>).

وكذلك أبى أبو هريرة أن يكتب عنه كاتب مروان بن الحكم<sup>(٧)</sup> وكان أحيانا يقول: إن أبا هريرة لا يكتب ولا يكتب<sup>(٨)</sup>، وفى رواية (نحن لا نكتب ولا نكتب<sup>(٩)</sup>).

وقال ابن عباس: (إننا لا نكتب العلم ولا نكتبه<sup>(١٠)</sup>)، وعن سعيد بن جبير عن

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٦٥ ج ١، ونحوه فى سنن الدارمى وفيه لو أنها «بدار الهندارية» يعنى - مكانا بعيدا بالكوفة - إلا أتيت ولو مشيا ص ١٢٤ ج ١.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٢ ج ١.

(٣) المرجع السابق ص ٦٣ ج ١.

(٤) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٦٣ ج ١.

(٥) المرجع السابق ص ٦٥ ج ١.

(٦) تقييد العلم ص ٣٥.

(٧) انظر: تقييد العلم ص ٤١ والإصابة ص ٢٠٢ ج ٧.

(٨) انظر: طبقات ابن سعد ص ١١٩ قسم ٢ ج ٢ ونحوه فى تقييد العلم ص ٤٢.

(٩) جامع بيان العلم ص ٦٦ ج ١ وقارن بسنن الدارمى ص ١٢٢ ج ١.

(١٠) جامع بيان العلم ص ٦٥ ج ١ ونحوه فى تقييد العلم ص ٤٢.

ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان ينهى عن كتابة العلم، وقال: (إنما ضل من كان قبلكم بالكتب<sup>(١)</sup>).

وقد تمسك أبو سعيد الخدرى بحديث رسول الله ﷺ الذى رواه فى النهى عن كتابة غير القرآن. وأبى أن يكتب أبا نضرة حين قال له هذا: ألا تكتبنا فإننا لا نحفظ؟ فقال أبو سعيد: لا إنا لن نكتبكم، ولن نجعله قرآناً، ولكن احفظوا عنا كما حفظنا نحن عن رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>.

ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أنه كان يكره كتابة الحديث، روى عن سعيد بن جبير أنه قال: (كنا نختلف فى أشياء فنكتبها فى كتاب، ثم أتيت بها ابن عمر أسأله عنها خفياً<sup>(٣)</sup>)، فلو علم بها كانت الفيصل بينى وبينه<sup>(٤)</sup>.

وكره أبو موسى أن يكتب ابنه عنه مخافة أن يزيد أو ينقص، ومحا ما كتبه بالماء<sup>(٥)</sup> وفى رواية قال: (احفظوا عنا كما حفظنا<sup>(٦)</sup>)، وفى رواية عنه أنه قال: (إن بنى إسرائيل كتبوا كتابا واتبعوه وتركوا التوراة)<sup>(٧)</sup>.

هؤلاء معظم الذين كرهوا كتابة الحديث فى الصدر الأول، حاولت أن أثبت رأى كل منهم إلى جانب وجهة نظره فيما ذهب إليه من المنع والكرهية، لأنى من استنتاج أسباب هذه الكراهية، فوجدت كما قال الخطيب البغدادي: (أن كراهية الكتاب فى الصدر الأول إنما هى لثلا يضاهاى بكتاب الله تعالى غيره. أو يُستَغَل).

(١) جامع بيان العلم ص ٦٥ ج ١، وتقييد العلم ص ٤٣.

(٢) سنن الدارمى ص ١٢٢ ج ١، وانظر: تقييد العلم فيه روايات مختلفة عنه ص ٣٦-٣٨. وكذلك فى جامع بيان العلم وفضله ص ٦٤ ج ١، وفى رواية عن أبى سعيد قال: «أتريدون أن تجعلوها مصاحف، إن نبيكم ﷺ كان يحدثنا فنحفظ فاحفظوا كما كنا نحفظ» انظر: جامع بيان العلم ص ٦٤ ج ١ وانظر: كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩١.

(٣) يريد خفية. أى ينظر إلى الكتاب من غير أن يشعر ابن عمر بذلك.

(٤) جامع بيان العلم ص ٦٦ ج ١ وتقييد العلم ص ٤٤.

(٥) انظر: المحدث الفاضل نسخة دمشق ص ٦ ج ٤ وقارن بكتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٣ وسنن الدارمى ص ١٢٢ ج ١.

(٦) جامع بيان العلم ص ٦٦ ج ١.

(٧) تقييد العلم ص ٥٦.

عن القرآن بسواه؛ ونهى عن الكُتُب القديمة أن تتخذ، لأنه لا يعرف حقها من باطلها؛ وصحيحها من فاسدها مع أن القرآن كفى منها، وصار مهيمًا عليها، ونهى عن كتب العلم في صدر الإسلام وجدته، لقلّة الفقهاء في ذلك الوقت، والمميزين بين الوحي وغيره، لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا في الدين، ولا جالسوا العلماء العارفين، فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن، ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن<sup>(١)</sup>، أضف إلى هذا ورع الصحابة وخشيتهم من أن يكون ما يملونه أو يقيدونه غير ما سمعوه من الرسول عليه الصلاة والسلام.

من أجل هذا أولى الصحابة رضوان الله عليهم كتاب الله عز وجل في هذه الحقبة عناية الحفظ في الصحف والمصاحف وفي الصدور، وجمعه في عهد الصديق، ونسخه في عهد عثمان، وبعثوا به إلى الآفاق، ليضمنوا حفظ المصدر التشريعي الأول من أن تشوبه أية شائبة، ثم حافظوا على السنة بدراستها ومذكراتها وكتابتها أحيانًا عند زوال مانع الكراهة، وقد ثبت عن كثير من الصحابة الحث على كتابة الحديث. وإجازة تدوينه.

ولا نشك في هذه الأخبار كما شك غيرنا، لأننا لا نرى فيها ذلك التعارض الذي تصوره بعض المستشرقين<sup>(٢)</sup>، حتى استجازوا لأنفسهم أن يحكموا على بعضها بالوضع والاختلاق، وسنوجز فيما يلي بعض ما روى عن الصحابة من إجازة تقييد الحديث، ليتبين صحة ما ذهبنا إليه.

وقيل أن تناول هذه الأخبار لا بد لي من أن أقلب النظر فيما روى عن محاولة عمر رضي الله عنه جمع السنة وتدوينها، كما جمع القرآن الكريم، ثم عدوله عن ذلك خوفًا من أن يلتبس الكتاب بالسنة، وخشية ألا يميز المسلمون الجدد بينهما. أقول: إن محاولته هذه تدل على اقتناعه بجواز كتابة الحديث الشريف، وهذا ما انتهى به أمر رسول الله ﷺ بعد النهي عن الكتابة، ولو شك عمر رضي الله عنه

(١) تقييد العلم ص ٥٧.

(٢) سنتكلم بعد قليل عن رأي جولد نسيهر في هذه الأخبار.

فى الجواز .. ما هم بأن يفعل ما منعه رسول الله ﷺ، وما كرهه، فإحجام الفاروق لم يكن لكراهة الكتابة، بل لمانع يقتضى أن يتريث فى التدوين والجمع لمصلحة أخطر وأعظم، ولذلك رأيناه يكتب بنفسه لمن يأمن عليه السلبس ويثق به، وربما سمح عمر رضى الله عنه بالكتابة بعد أن رأى حفظ الأمة لكتاب الله تعالى بجمعه فى المصحف الشريف، ويقوى هذا ما يروى عن عمرو بن أبى سفيان من أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: (قيدوا العلم بالكتاب)<sup>(١)</sup>.

ثم إن بعض الصحابة أنفسهم قد أجاز الكتابة، وكتب بعضهم بيده، وتغير رأى من عرف منهم النهى عن كتابة الحديث حينما زالت أسباب المنع، وخاصة بعد أن جمع القرآن فى المصاحف وأرسل إلى الآفاق.

ولا يتقضى هذا الرأى الذى ذهبنا إليه .. ما روى عن أنس بن مالك أن أبابكر الصديق كتب له فرائض الصدقة التى سنها رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup> بأن هذا كان قبل نسخ المصاحف، لأننا لم نجعل الخشية من التباس الكتاب بالسنة السبب الوحيد لمنع الكتابة، بل هناك أسباب أخرى قد ذكرتها فيما سبق، ثم إن أنسا رضى الله عنه ممن لا يلتبس عليه ذلك، لأنه خدم رسول الله عليه الصلاة والسلام وعرفه وتلقى عنه عشر سنوات، وعلى هذا نقول: إنه ثبت عن أبى بكر كتابة شىء من السنة وكذلك ثبت عن الفاروق مثل ذلك<sup>(٣)</sup>.

وهذا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول: (ما كنا فى عهد رسول الله ﷺ إلا الاستخارة والتشهد)<sup>(٤)</sup> فهذا دليل على كتابة الصحابة غير القرآن الكريم فى عهده ﷺ، وعلى عدم كراهة ابن مسعود للكتابة، وقد روينا خبر الكتاب الذى كان عند ابنه بخط يده<sup>(٥)</sup>.

(١) تقييد العلم ص ٨٨، وجامع بيان العلم ص ٧٢ ج ١. ووجد ابن عمر فى قائم سيف أبيه صحيفة. انظر: الكفاية ص ٣٥٤، وتوجيه النظر ص ٣٤٨.

(٢) انظر: تقييد العلم ص ٨٧، وفى مسند الإمام أحمد أن أبابكر كتب لهم (إن هذه فرائض الصدقة التى فرض رسول الله) انظر: ص ١٨٣ ج ١.

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد ص ٢٦١ ج ١ والكفاية ص ٣٣٦.

(٤) مصنف ابن أبى شيبة ص ١١٥ ب، ج ١. (٥) انظر: جامع بيان العلم ص ٧٢ ج ١.

وروى عن علي رضي الله عنه أنه كان يحض على طلب العلم وكتابته، فقد قال: (من يشتري مني علماً بدرهم؟ قال أبو خيثمة: يقول: يشتري صحيفة بدرهم يكتب فيها العلم)<sup>(١)</sup>، وخبر صحيفة علي رضي الله عنه مشهور، وقد كانت معلقة في سيفه، فيها أسنان الإبل وشيء من الجراحات<sup>(٢)</sup>...

وهذا الحسن بن علي رضي الله عنهما يقول لابنيه وبني أخيه: (تعلموا تعلموا، فإنكم صغار قوم اليوم، تكونون كبارهم غداً، فمن لم يحفظ منكم فليكتب)<sup>(٣)</sup>، وفي رواية: (فليكتبه، وليضعه في بيته)<sup>(٤)</sup>.

وهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول لابن أختها عروة بن الزبير: (يا بني، بلغني أنك تكتب عنى الحديث ثم تعود فتكتبه، فقال لها: أسمع منك على شيء، ثم أعود فأسمعه على غيره، فقالت: هل تسمع في المعنى خلافاً؟ قال: لا. قالت لا بأس بذلك)<sup>(٥)</sup>، فلو كرهت عائشة رضوان الله عليها الكتابة لمنعته ونهته، ولكنه لم يحدث شيء من هذا، بل لم تر بأساً بعمله.

وهذا أبو هريرة رضي الله عنه يسمح لبشير بن نهيك أن يكتب عنه، ويجيزه بالرواية عنه<sup>(٦)</sup> وفي رواية يقول بشير: (أتيت أبا هريرة بكتابي الذي كتبتك، فقرأته عليه فقلت: هذا سمعته منك؟ قال: نعم)<sup>(٧)</sup>، وروى عمرو بن أمية الضمري أنه رأى كتباً كثيرة عند أبي هريرة<sup>(٨)</sup>.

(١) العلم لزهير بن حرب ص ١٩٣: ب وتقييد العلم ص ٩٠.

(٢) انظر: مستند الإمام أحمد ص ٤٥ و ١٢٢ ج ٢، وغيرها وتقييد العلم ص ٨٨، ٩٩ وجامع بيان العلم ص ٧١ ج ١ وفتح الباري ص ٨٣ ج ٧.

(٣) الكفاية ص ٢٢٩. (٤) تقييد العلم ص ٩١.

(٥) الكفاية ص ٢٠٥.

(٦) انظر: العلم لزهير بن حرب ص ١٩٣: ب والمحدث الفاضل ص ١٢٨.

(٧) طبقات ابن سعد ص ١٦٢ ج ٧ وجامع بيان العلم ص ٧٢ ج ١، والعلوم لزهير ص ١٩٣ والكفاية ص ٢٥٥، ٢٨٣.

(٨) انظر: جامع بيان العلم ص ٧٤ ج ١، وفتح الباري ص ٢١٧ ج ١ كما أنه أملى بعض أحاديثه على همام ابن منبه واستعرض لذلك.

وكتب معاوية بن أبي سفيان إلى المغيرة بن شعبه: (اكتب إلى بشيء سمعته من رسول الله ﷺ، فكتب المغيرة إليه: أنه كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)<sup>(١)</sup>.

وكتب زياد بن أبي سفيان إلى السيدة عائشة رضی الله عنها يسألها عن الحاج الذي يرسل هديته، وهل يحرم عليه ما يحرم على الحاج حتى ينحر، كما أفنى ابن عباس؟ فأجابته عن هدى رسول الله ﷺ، وقالت: (فلم يحرم رسول الله ﷺ شيء أحله الله له حتى نحر الهدى)<sup>(٢)</sup>.

وهذا ابن عباس يسأل أبا رافع صاحب رسول الله ﷺ ومعه من يكتب له<sup>(٣)</sup>، وفي رواية أنه كانت معه ألواح يكتب فيها<sup>(٤)</sup>، وكان ابن عباس يحض على التعلم والكتابة ويقول: (قيدوا العلم بالكتاب، من يشتري مني علماً بدرهم)<sup>(٥)</sup>، وكان يقول أحياناً: (إنا لا نكتب في الصحف إلا الرسائل والقرآن)<sup>(٦)</sup> إلا أننا نرى ابن عباس نفسه يكتب غير الرسائل، فيملئ التفسير على مجاهد بن جبير، ويقول له: اكتب<sup>(٧)</sup>، ويكتب إليه الحجاج أمير العراق يستفتيه في رجل أكره أخته، فيكتب إليه بحديث عن رسول الله ﷺ<sup>(٨)</sup>.

وسبق لي أن ذكرت كتابة عبد الله بن عمرو بن العاص، وستكلم عن صحيفته بعد قليل.

(١) معرفة علوم الحديث ص ١٠٠ واختصر الحاكم الخبر وتجد تفصيل ما كتبه المغيرة إلى معاوية في حديث جامع شامل للبخاري في صحيحه. انظر: فتح الباري ص ٩٥ ج ٩ طبعة مصر بولاق سنة ١٣١٢هـ.

(٢) الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة ص ٩٥، ٩٦، وقد قال الإمام الزهري: (أول من كشف الغمى عن الناس وبين لهم السنة في ذلك عائشة...).

(٣) انظر: ترجمة عبد الله بن عباس في الإصابة. انظر: تقييد العلم ص ٩١، ٩٢ و ١٠٩.

(٥) العلم لزهير بن حرب ص ٩٣ وجامع بيان العلم ص ٧٢ ج ١، وتقييد العلم ص ٩٢.

(٦) العلم لزهير بن حرب ص ١٨٧.

(٧) انظر: تفسير الطبري بتحقيق أحمد محمد شاكر ص ٣١ ج ١.

(٨) انظر: البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث ص ٢١٤، ٢١٥ ج ٢ وقد ذكر هذا في سبب ورود حديث (من تخطى الحرمین فخطوا وسطه بالسيف) وهما حرمة الزنا وحرمة الأخوة. وكان ابن عباس يفتي كتابة أيضاً، انظر فتواه لنجدة بن عامر في مسند الإمام أحمد ص ٥٦ ج ٤.

وهذا أبو سعيد الخدرى الصحابى الذى روى عن رسول الله ﷺ حديث «... من كتب عنى غير القرآن فليمحه» يقول: (كنا لا نكتب إلا القرآن والتشهد)<sup>(١)</sup>.

وكان البراء بن عازب صاحب رسول الله ﷺ يحدث ويكتب من حوله، فعن عبد الله بن خنيس قال: (رأيتهم عند البراء يكتبون على أيديهم بالقصب)<sup>(٢)</sup>.

وهذا وراد كاتب المغيرة بن شعبة يكتب بين يدي المغيرة<sup>(٣)</sup>.

ويروى عن ابن عمر رضى الله عنه أنه كان لا يخرج من بيته غدوة حتى ينظر فى كتبه<sup>(٤)</sup>.

وهذا أنس رضى الله عنه خادم رسول الله ﷺ وملازمه فى بيته ليلاً ونهاراً عشر سنوات، كان يقول لبنيه: (يا بنى قيدوا العلم بالكتاب)<sup>(٥)</sup>، وكان يملئ الحديث<sup>(٦)</sup> حتى إذا ما كثر عليه الناس جاء بمجال<sup>(٧)</sup> من كتب، فألقاها ثم قال: (هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله ﷺ وعرضتها عليها)<sup>(٨)</sup>.

تلك أخبار متعاضدة، تثبت أن الصحابة رضوان الله عليهم قد أباحوا الكتابة، وكتبوا الحديث لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصون بكتابة الحديث وحفظه، كما ثبت ذلك عن على رضى الله عنه، وعن ابن عباس، وعن الحسن، وأنس بن مالك رضى الله عنهم، بعد أن كرهها بعض الصحابة عندما كانت أسباب المنع قائمة.

(١) تقييد العلم ص ٩٣.

(٢) جامع بيان العلم ٨١ ج١، وانظر: كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٣: ب وتقييد العلم ص ١٠٥.

(٣) انظر: كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٨٧.

(٤) انظر: الآداب الشرعية ص ١٢٥ ج٢.

(٥) انظر: كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٢ وتقييد العلم ص ٩٦ ونحوه وانظر: صحيح مسلم بشرح النووى ص ٢٤٤ ج١ حيث أعجبه حديث فأمر ابنه بكتابتها.

(٦) انظر: تاريخ بغداد ص ٢٥٩ ج٨.

(٧) مجال جمع مجلة والمجلة صحيفة يكتب فيها، أى ألقى إليهم صحفًا. انظر: لسان العرب مادة (جمل)

ص ١٢٧ ج١٣.

(٨) تقييد العلم ص ٩٥، ٩٦.

ويتجلى لنا رجوع بعض من كره الكتابة عن رأيه مما روينا عن ابن مسعود وعن أبي سعيد الخدري، إذ بعد أن كانوا يكرهون أن يكتبوا في الصحف غير القرآن كتبوا الاستخارة والتشهد، وفي هذا دليل واضح أن النهي عن كتب ما سوى القرآن إنما كان مخافة أن يضاهى بكتاب الله تعالى غيره، وأن يُشتغل عن القرآن بسواه، ويقول الخطيب البغدادي: (فلما أمن ذلك، ودعت الحاجة إلى كُتب العلم - لم يُكره كُتبه، كما لم تكرر الصحابة كتب التشهد، ولا فرق بين التشهد وبين<sup>(١)</sup> غيره من العلوم في أن الجميع ليس بقرآن، ولن يكون كتب الصحابة ما كتبه من العلم وأمروا بكتبه إلا احتياطاً، كما كان كراهيتهم لكتبه احتياطاً، والله أعلم)<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: التدوين في عصر التابعين

لقد تلقى التابعون علومهم على يدي الصحابة، وخالطوهم وعرفوا كل شيء عنهم، وحملوا الكثير الطيب من حديث رسول الله ﷺ عن طريقهم، وعرفوا متى كره هؤلاء كتابة الحديث ومتى أباحوه، فقد تأسوا بهم وهم الرعيل الأول الذين حفظوا القرآن والسنة، فمن الطبيعي أن تتفق آراء التابعين وآراء الصحابة حول حكم التدوين، فإن الأسباب التي حملت الخلفاء الراشدين والصحابة على الكراهة هي نفسها التي حملت التابعين عليها، فيقف الجميع موقفاً واحداً، ويكرهون الكتابة مادامت أسباب الكراهة قائمة، ويجمعون على الكتابة وجوازها عند زوال تلك الأسباب، بل إن أكثرهم يحض على التدوين ويشجع عليه. ولن نستغرب أن نرى خبيرين عن تابعي أحدهما يمنع الكتابة والآخر يبيحها، ولن نعجب من كثرة الأخبار التي تدل على الكراهة في مختلف أجيال التابعين - كبارهم وأوساطهم وصغارهم - والأخبار التي تدل على الإباحة - مادامنا نوجه كل مجموعة من هذه الأخبار وجهة تلائم الأسباب التي أدت إليها، ونرى أن سبيل الصحابة المتأخرين وكبار التابعين إباحة تقييد الحديث، بشروط تمتنع معها كراهته المأثورة عندهم عن النبي وكبار الصحابة<sup>(٣)</sup>، فقد تمتنع عن الكتابة من كبار

(١) كان ينبغي ألا يكرر (بين).

(٢) تقييد العلم ص ٩٤.

(٣) انظر: تقييد العلم: انظر: تصدير أستاذنا الدكتور يوسف العثري ص ١٩ ومقالته في مجلة الثقافة المصرية:

العدد (٣٥٢) السنة السابعة الصفحة (٨).

التابعين عبدة بن عمرو السلماني المرادي (- ٧٢هـ). وإبراهيم بن يزيد التيمي (- ٩٢هـ)، وجابر بن زيد (- ٩٣هـ) وإبراهيم النخعي (- ٩٦هـ)، ولم يرض عبدة أن يكتب عنده أحد، ولا يقرأ عليه أحد<sup>(١)</sup>، وقد نصح إبراهيم فقال له: «لا تخلدن عنى كتاباً»<sup>(٢)</sup>، وقبل وفاته دعا بكتبه فأحرقها وقال: (أخشى أن يليها قوم يضعونها غير موضعها)<sup>(٣)</sup>، وكره إبراهيم النخعي أن تكتب الأحاديث في الكرايس، وتشبه بالمصاحف<sup>(٤)</sup>، وكان يقول: (ما كتبت شيئاً قط)<sup>(٥)</sup>، حتى إنه منع حماد بن سليمان من كتابة أطراف الأحاديث<sup>(٦)</sup>، ثم تساهل في كتابتها، قال ابن عون: (رأيت حماداً يكتب عن إبراهيم فقال له إبراهيم: ألم أنك؟ قال: إنما هي أطراف)<sup>(٧)</sup>.

ونسبع عامراً الشعبي (١٧ - ١٠٣هـ) يردد عبارته المشهورة: (ما كتبت سواداً في بيضاء، ولا سمعت من رجل حديثاً فأردت أن يعيده علي)<sup>(٨)</sup>.

وقد ازدادت كراهة التابعين للكتابة عندما اشتهرت آراؤهم الشخصية، فخافوا أن يدونها طلابهم مع الحديث، وتحمل عنهم، فيدخله الالتباس.

- 
- (١) جامع بيان العلم ص ٦٧ ج١ وتقييد العلم ص ٤٥، ٤٦ وانظر: كتاب العلم لزهير ص ١٩٣: ب.  
(٢) جامع بيان العلم وفضله ص ٦٧ ج١ ونحوه في سنن الدارمي ص ١٢١ ج١ وفي طبقات ابن سعد ص ٦٣ ج١.  
(٣) انظر: سنن الدارمي ص ١٢١ ج١، وجامع بيان العلم وفضله ج١ وتقييد العلم ص ٤٨.  
(٤) تقييد العلم ص ٦٠، وكان يقول: (لا تكتبوا فتتكلموا) وانظر: جامع بيان العلم ص ٦٨ ج١.  
(٥) انظر: طبقات ابن سعد ص ١٩٠ ج١.  
(٦) سنن الدارمي ص ١٢٠ ج١ ونحوه في كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٤. قال أستاذنا الدكتور يوسف العث (ولقد تشدد بعضهم فأراد ألا يكون سبيل للشبه أبداً فأحل كتابة العلم في الأطراف - أي على أطراف العظام فقط - كإبراهيم النخعي، فهي صعبة الحفظ، والمضاهاة بينها وبين الكرايس بعيدة. اهـ) انظر: الصفحة (٧) من مجلة الثغافة المصرية عدد ٣٥٢ السنة السابعة. أقول: ليس المراد من الأطراف (أطراف العظام) بل أطراف الأحاديث. وهي أن يكتب المصنف طرف الحديث بحيث يعرف بقيته مع الجمع لأسانيد، ويوضح ما ذهبنا إليه رواية زهير بن حرب وفيها قول إبراهيم (لا بأس بكتاب الأطراف) انظر: كتاب العلم ص ١٩٤. وكتب الأطراف كثيرة عقد لها صاحب الرسالة المستطرفة بحثاً في رسالته (صفحة ١٢٥ - ١٢٧) وكتاب ذخائر الموارث) لعبد الغنى النابلسي هو أحد كتب الأطراف المشهورة.  
(٨) العلم لزهير بن حرب ص ١٨٧: ب وجامع بيان العلم ص ٦٧ ج١.

ويمكننا أن نستنبط أن من كره الكتابة وأصر، إنما كره أن يدون رأيه، وفي هذا يقول أستاذنا الدكتور يوسف العث: (وأما ما ورد عنهم الامتناع عن الإكتاب من هذا الجليل، فيؤول امتناعهم بما لا يخالف ما انتهينا إليه، فهم جميعاً فقهاء<sup>(١)</sup> وليس بينهم محدث ليس بفقيه، والفقيه يجمع بين الحديث والرأى، فيخاف تقييد رأيه واجتهاده إلى جانب أحاديث الرسول ﷺ)<sup>(٢)</sup>. ويوضح هذا بأمثلة تثبت ما ذهب إليه، فيقول: (إننا نجد في الواقع أخباراً تروى كراهتهم لكتابة الرأى، كاعتذار زيد بن ثابت عن أن يكتب عنه كتاب مروان... وجاء رجل إلى سعيد ابن المسيب - وهو من الفقهاء الذين روى امتناعهم عن الإكتاب - فسأله عن شيء فأملأه عليه، ثم سأله عن رأيه فأجابته، فكتب الرجل، فقال رجل من جلساء سعيد: أكتب يا أبا محمد رأيك؟ فقال سعيد للرجل: ناولنيها، فناوله الصحيفة فحرقها<sup>(٣)</sup>، وقيل لجابر بن زيد: إنهم يكتبون رأيك، قال: تكتبون ما عسى أرجع عنه غداً<sup>(٤)</sup>؟

وكل هذه الأقوال رويت من علماء، حدث المؤرخون عنهم أنهم كرهوا إكتاب الناس، وهي تدل دلالة صريحة على أن الكراهة ليست في كتابة العلم أى الحديث، بل في كتابة الرأى، وأن الأخبار التي وردت في النهى دون تخصيص إنما قصد بها الرأى خاصة. ويشابه هذا الأمر ما حدث في أمر كراهة الرسول والصحابة الأولين: من التباس الحديث بالقرآن، أو الانكباب عليه دونه، فما كانوا يخشونه من الحديث، أصبح خشية التابعين الأولين من الرأى والتباسه بالحديث<sup>(٥)</sup>.

ويقوى هذا الرأى عندنا ما ورد عن هؤلاء التابعين من أخبار يحثون فيها على الكتابة، ويسمحون لطلابهم أن يكتبوا عنهم، وقد نشطت الكتابة عندما فرق

(١) ذكر أستاذنا هنا أسماء بعض من ذكرتهم قبل وأضاف سعيد بن المسيب (-٩٤هـ). وطاوس (-١٠٦هـ) والقياس (-١٠٧هـ) وغيرهم. انتهى ما لم نذكره في النص.

(٢) تقييد العلم: التصدير ص ٢٠.

(٣) راجع الخبر في جامع بيان العلم ص ١٤٤ ج ٢.

(٤) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٣١ ج ٣.

(٥) مجلة الثقافة المصرية: الصفحة ٨، ٩ من العدد ٣٥٢ في السنة السابعة.

طلاب العلم بين النهي عن كتابة الرأى والنهي عن كتابة الرأى مع الحديث، ونرى التابعين ينكبون على الكتابة فى حلقات الصحابة، بل إن بعضهم كان يحرص على الكتابة حرصاً شديداً، فهذا سعيد بن جبير (-٩٥هـ) كان يكتب عن ابن عباس، فإذا ما امتلأت صحفه كتب فى نعله حتى يملأها<sup>(١)</sup>، وعنه قال: (كنت أسير بين ابن عمر وابن عباس، فكنت أسمع الحديث منهما، فأكتبه على واسطة الرحل حتى أنزل فأكتبه)<sup>(٢)</sup>، ورخص سعيد بن المسيب (-٩٤هـ) لعبد الرحمن بن حرملة بالكتابة حينما شكوا إليه سوء حفظه<sup>(٣)</sup>، ونرى عامراً الشعبي بعد أن كان يقول: ما كتبت سوداء فى بيضاء - يردد قوله: (الكتابة قيد العلم)<sup>(٤)</sup>، وكان يحض على الكتابة ويقول: (إذا سمعتم منى شيئاً فاكتبوه ولو فى حائط)<sup>(٥)</sup>، ومع هذا، فقد روى أنه لم يوجد له بعد موته إلا كتاب بالفرائض والجراحات<sup>(٦)</sup>، وإذا كانت كتبه التى تركها قليلة وتدل على نشاطه العلمى - فإننا نعزو هذا إلى قوة حافظته، لأنه كان يعتمد على الحفظ أكثر من اعتماده على الكتابة، وهذا لا ينافى قط إملاءه لطلابه وحثهم على الكتابة. ويقول الضحاك بن مزاحم (-١٠٥هـ): (إذا سمعت شيئاً فاكتبه ولو فى حائط) كما أنه أملى على حسين بن عقيل مناسك الحج<sup>(٧)</sup>.

وانتشرت الكتب حتى قال الحسن البصرى (-١١٠هـ): (إن لنا كتباً كنا نتعاهدها)<sup>(٨)</sup>. وكان عمر بن عبد العزيز (٦١ - ١٠١هـ) يكتب الحديث، روى

(١) انظر: تقييد العلم ص ١٠٢ وانظر: المحدث الفاضل: نسخة دمشق ٤: ب ج٤ قوله (كتب فى ظهورهما حتى تمتلنا).

(٢) تقييد العلم ص ١٠٣ ونحوه فى جامع بيان العلم ص ٧٢ ج١ وقارن بطبقات ابن سعد ص ١٧٩ - ١٨٠ ج٦.

(٣) انظر: المحدث الفاضل نسخة دمشق ص ٤: ب ج٤، وجامع بيان العلم وفضله ص ٧٣ ج١ وتقييد العلم ص ٩٩.

(٤) تقييد العلم ص ٩٩، وجامع بيان العلم ص ٧٥ ج١.

(٥) المرجع السابق ص ١٠٠ وانظر: نحوه فى المحدث الفاضل نسخة دمشق ص ٤: ب، ج٤، والعلم لزهير ص ١٩٣: ب.

(٦) انظر: تاريخ بغداد ص ٢٣٢ ج١١.

(٧) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٧٢ ج١.

(٨) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٤ ج١، والعلم لزهير ص ١٨٩: ب.

عن أبي قلابة قال: (خرج علينا عمر بن عبد العزيز لصلاة الظهر ومعه قرطاس ثم خرج علينا لصلاة العصر وهو معه، فقلت له: يا أمير المؤمنين، ما هذا الكتاب؟ قال: حديث حدثني به عون بن عبد الله فأعجبني فكتبته<sup>(١)</sup>...) وهذا يدل على أن الكتابة قد شاعت بين مختلف الطبقات ولم يعد أحد ينكرها في أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني. وقد كثرت الصحف والكتب في ذلك الوقت حتى لنرى مجاهد بن جبر (-١٠٣هـ) يسمح لبعض أصحابه أن يصعدوا إلى غرفته فيخرج إليهم كتبه فينسخون منها<sup>(٢)</sup>.

ويطلب هشام بن عبد الملك من عامله أن يسأل رجاء بن حيوة (-١١٢هـ) عن حديث، فيقول رجاء: (فكنت قد نسيت لولا أنه كان عندي مكتوباً)<sup>(٣)</sup>.

وكان عطاء بن أبي رباح (-١١٤هـ) يكتب لنفسه، ويأمر ابنه أحياناً أن يكتب له<sup>(٤)</sup>، وكان طلابه يكتبون بين يديه<sup>(٥)</sup>، وقد بالغ في حض طلابه على التعلم والكتابة، فعن أبي حكيم الهمذاني قال: (كنت عند عطاء بن أبي رباح، ونحن غلمان، فقال: يا غلمان، تعالوا اكتسبوا، فمن كان منكم لا يحسن كتبنا له، ومن لم يكن معه قرطاس أعطيناه من عندنا<sup>(٦)</sup>!!).

ونشطت الحركة العلمية وازدادت معها الكتابة والقراءة على العلماء، ويدل على هذا ما روى عن الوليد بن أبي السائب قال: رأيت مكحولاً ونافعاً وعطاء تقرأ عليهم

---

(١) سنن الدارمي ص ١٣٠ ج١ وسمع من يزيد الرقاشي أحاديث عن أنس فكتبها وفرض له في الديوان، انظر: المحدث الفاضل ص ٣: ب، ج٤ وستحدث عن خدمة عمر بن عبد العزيز للسنة وأمره بكتابتها بعد قليل.

(٢) انظر: سنن الدارمي ص ١٢٨ ج١، وتقييد العلم ص ١٠٥ ونرى في سنن الدارمي ص ١٢١ ج١ أنه كان يكره أن يكتب العلم في الكرايس، فتحمل الكراهة على أن يضاهى بهذه القرآن أو أن تؤول الكرايس إلى غير أهلها.

(٣) سنن الدارمي ص ١٢٩ ج١، وتقييد العلم ص ١٠٨.

(٤) انظر: المحدث الفاضل نسخة دمشق ص ٣: ب ج٤.

(٥) انظر: سنن الدارمي ص ١٢٩ ج١.

(٦) المحدث الفاضل نسخة دمشق ص ٣: ب ج٤.



والمذهبية، ويؤكد لنا هذا ما يرويه أخو ابن شهاب الزهري عنه قال: (سمعتة  
 - يعنى ابن شهاب - يقول: لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها -  
 ما كتبت حديثاً، ولا أذنت في كتابه<sup>(١)</sup>) ورأى الزهري هذا رأى أكثر علماء  
 ذلك العصر، فإن حرصهم على حديث رسول الله ﷺ من أن يدرس لا يقل عن  
 حرصهم على سلامته من الكذب والوضع، فكان هذان العاملان من أقوى العوامل  
 التي حفزت همم العلماء إلى خدمة السنة وكتابتها، عندما تبنت الحكومة جمعها  
 رسمياً على يدى الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز، الذي اتخذ خطوة حازمة  
 فكتب إلى الأفق: (انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه)<sup>(٢)</sup>.

وكان فيما كتب إلى أهل المدينة: (انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه،  
 فإنى خفت دروس العلم وذهاب أهله)<sup>(٣)</sup>. وكان فى كتابه إلى أبى بكر  
 ابن محمد بن عمرو بن حزم (- ١١٧هـ) عامله على المدينة أن (اكتب إلى بما  
 ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ، وبحديث عمرة فإنى خشيت دروس  
 العلم وذهابه)<sup>(٤)</sup>. وفى رواية: أمره (أن يكتب له العلم من عند عمرة بنت  
 عبد الرحمن (- ٩٨هـ)، والقاسم بن محمد (- ١٠٧هـ)، فكتبه له)<sup>(٥)</sup> وفى  
 رواية: (فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبى ﷺ،  
 وليفشوا العلم، وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى  
 يكون سرّاً)<sup>(٦)</sup>.

(١) تقييد العلم ص ١٠٨.

(٢) فتح البارى ص ٢٠٤ ج١ رواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان.

(٣) سنن الدارمى ص ١٢٦ ج١ وقارن بالمحدث الفاضل نسخة دمشق ص ٤ : ١ ج٤ وقارن بكتاب الأموال  
 ص ٣٥٨، ٣٥٩.

(٤) سنن الدارمى ص ١٢٦ ج١، وقارن بطبقات ابن سعد ص ١٣٤ قسم ٢ ج٢ وبالأموال لابن سلام  
 ص ٥٧٨ وبالتاريخ الصغير ص ١٠٥ وتقييد العلم ص ١٠٥.

(٥) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢١، والمراد أن يكتب له حديث عمرة، لأنها توفيت قبل سنة (٩٩هـ)، السنة  
 التي تولى فيها عمر بن عبد العزيز الخلافة، وواضح هذا فى الخبر الذى قبله.

(٦) فتح البارى ص ٢٠٤ ج١.

كما أمر ابن شهاب الزهري (- ١٢٤هـ) وغيره بجمع السنن<sup>(١)</sup>، وربما لم يكتب عمر بن عبد العزيز بأمر من أمرهم بجمع الحديث، فأرسل كتباً إلى الآفاق يبحث المسؤولين فيها على تشجيع أهل العلم على دراسة السنة وإحيائها، ومن هذا ما يرويه عكرمة بن عمار قال: (سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز يقول: أما بعد فأمرنا أهل العلم أن ينتشروا في مساجدهم فإن السنة كانت قد أميتت)<sup>(٢)</sup> كما كتب (إنه لا رأى لأحد في كتاب، وإنما رأى الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ، ولا رأى لأحد في سنة سنها رسول الله ﷺ)<sup>(٣)</sup>، بل هناك أخبار تثبت أن عمر بن عبد العزيز قد شارك العلماء في مناقشة بعض ما جمعوه، من ذلك ما رواه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان القرشي قال: (رأيت عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء، فجمعوا له أشياء من السنن، فإذا جاء الشيء الذي ليس العمل عليه، قال: هذه زيادة ليس العمل عليها)<sup>(٤)</sup>.

لقد بذل عمر بن عبد العزيز جهده في المحافظة على السنة - مع قصر مدة خلافته، فقد طلب من أبي بكر بن حزم جمع الحديث، وأبو بكر هذا من أعلام عصره، قال فيه مالك بن أنس: (ما رأيت مثل أبي بكر بن حزم أعظم مروءة ولا أتم حالاً... ولي المدينة والقضاء والموسم)<sup>(٥)</sup>، وعنه قوله: (لم يكن عندنا أحد بالمدينة عنده من علم القضاء ما كان عند أبي بكر)<sup>(٦)</sup>. وكان قد طلب منه أن يكتب إليه حديث عمرة بنت عبد الرحمن وهي خالته، نشأت في حجر عائشة، وكانت من أثبت التابعين في حديث عائشة رضى الله عنها<sup>(٧)</sup>.

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٧٦ ج ١.

(٢) سنن الدارمي ص ١١٤ ج ١، وانظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٣٤ ج ٢.

(٣) قبول الأخبار ص ٣٠، وتوفي أبو الزناد سنة (١٣١هـ)، ومن ذلك أيضاً (ما روى عن يعقوب ابن عبد الرحمن عن أبيه، قال: حضرت عبيد الله بن عبد الله، دخل على عمر بن عبد العزيز، فأجلس قوماً يكتبون ما يقول، فلما أراد أن يقوم، قال له عمر: (صنعنا شيئاً) قال: وما هو يا ابن عبد العزيز؟ قال: (كتبنا ما قلت) قال: وأين هو؟ قال: فجاء به فخرق. تقييد العلم ص ٤٥) ربما كره الكتابة عنه لأنه ممن يجب الاعتماد على الخفظ كما سنذكر بعد قليل.

(٤، ٥) تهذيب التهذيب ص ٣٩ ج ١٢.

(٧) انظر: المرجع السابق ص ٤٣٨ ج ١٢، وقال سفيان بن عيينة: أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة، القاسم ابن محمد، وعروة بن الزبير، وعمرة بنت عبد الرحمن. انظر: مقدمة الجرح والتعديل ص ٤٥.

وأما القاسم بن محمد بن أبي بكر (٣٧ - ١٠٧هـ) الذي ذكر في بعض الروايات فهو أحد الفقهاء السبعة في المدينة، وعالم أهل زمانه، تلقى علمه عن عمته عائشة رضى الله عنها، وعائشة أم المؤمنين معروفة بعلمها وتعمقها في السنة، وهي غنية عن التعريف.

وأما ابن شهاب أحد الذين شاركوا في الجمع والكتابة فهو أحد أعلام ذلك العصر، كان قد كتب السنن وما جاء عن الصحابة أثناء طلبه العلم<sup>(١)</sup>. وكان ذا مكانة رفيعة، فقد روى عن أبي الزناد أنه قال: (كنا نكتب الحلال والحرام وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع، فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس)<sup>(٢)</sup>.

وإذا كانت المنية قد احترمت الخليفة الراشد الخامس قبل أن يرى الكتب التي جمعها أبو بكر - كما يذكر ذلك بعض العلماء<sup>(٣)</sup> - فإنه لم تفته أولى ثمار جهوده، التي حققها ابن شهاب الزهري الذي يقول: (أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنين، فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا<sup>(٤)</sup>)، وعلى هذا يحمل ما قاله المؤرخون والعلماء: (أول من دون العلم ابن شهاب)<sup>(٥)</sup> وله أن يفخر بعلمه هذا، ويقول: (لم يدون هذا العلم أحد قبل تدويني)<sup>(٦)</sup>.

وقد اعتبر علماء الحديث تدوين عمر بن عبد العزيز هذا أول تدوين للحديث ورددوا في كتبهم هذه العبارة: (وأما ابتداء تدوين الحديث فإنه وقع على رأس المائة في خلافة عمر بن عبد العزيز)<sup>(٧)</sup> أو نحوها.

- 
- (١) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٢٦ ج١ والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٥٦ أ.
  - (٢) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٣ ج١، وانظر: ترجمة ابن شهاب في الفصل الثاني من الباب الخامس من هذا الكتاب.
  - (٣) انظر: قواعد التحديث ص ٤٧.
  - (٤) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٦ ج١.
  - (٥) المرجع السابق ص ٧٦ ج١ وحلية الأولياء ص ٣٦٣ ج٣.
  - (٦) الرسالة المستطرفة ص ٤.
  - (٧) تدريب الراوى ص ٤٠ وقواعد التحديث ص ٤٦، ونحو هذا في توجيه النظر ص ٦ وإرشاد السارى ص ١٤ ج١.

وإنهم من هذا أن التدوين الرسمي كان في عهد عمر بن بن عبد العزيز، أما تقييد الحديث وحفظه في الصحف والرقاع والعظام فقد مارسه الصحابة في عهد رسول الله ﷺ، ولم ينقطع تقييد الحديث بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، بل لقي جنباً إلى جنب مع الحفظ حتى قيص للحديث من يودعه المدونات الكبرى.

وسيتبين لنا بعد قليل أن والد عمر بن عبد العزيز قد سبق ابنه في طلب تدوين الحديث. وأن أهل الحديث لم يمسكوا طوال القرن الأول عن تقييد حديث رسول الله ﷺ منتظرين سماح الخليفة وأمره، وقد ذكرنا شيئاً من هذا فيما عرضناه من أخبار عن سماح الصحابة والتابعين بالكتابة وكتاباتهم لأنفسهم.

وهكذا كانت نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني خاتمة حاسمة لما كان من كراهة الكتابة وإياحتها، فدونت السنة في صحف وكراريس ودفاتر، وكثرت الصحف في أيدي طلاب الحديث.

وقد يظن الباحث أن كراهة الكتابة قد ولت، وانهزمت أمام إياحتها، ولم تعد هذه الإباحة مجرد رأى، بل انتقل الرأى إلى التطبيق فعلاً، وتبنت الدولة الإشراف على الكتابة، ولكننا لا نلبث أن نسمع أصوات من يكره الكتابة تعلقوا من جديد، وكان بعض هؤلاء من نفس جيل التابعين الثاني (أواسطهم) ومن صغارهم، فقد راعهم أن يروا الحديث في كرايس ودفاتر، وأن يعتمد طلاب الحديث والعلماء على الكتب، ويهملوا الحفظ، فتمسكوا بالآثار التي لا تبيح الكتابة، وأبوا أن ينكب أهل الحديث على دفاترهم، ويجعلوها خزائن علمهم، ولم يعجبهم أن يخالف سبيل الصحابة في الحفظ والاعتماد على الذاكرة، وحق لهم أن يكرهوا الاتكال على الكتب، لأن في الاتكال على المكتوب وحده إضعافاً للذاكرة، وانصرافاً عن العمل به.

وها هو ذا الضحاك بن مزاحم الذي أباح الكتابة سابقاً، والذي أملى مناسك الحج حين زال خوفه من أسباب الكراهة - هاهو ذا يقول: (يأتى على الناس زمان

تكثر فيه الأحاديث حتى يبقى المصحف بغباره لا ينظر فيه<sup>(١)</sup> وفي رواية عنه (يأتي على الناس زمان يعلق فيه المصحف حتى يعشعش عليه العكبوت، لا ينتفع بما فيه وتكون أعمال الناس بالروايات والأحاديث)<sup>(٢)</sup> لقد تصور عاقبة هذا الإقبال على الكتابة وجعل الحديث في دفاتر وكراريس، فأعلن إنكاره سدويًا: (لا تتخذوا للحديث كراريس ككراريس المصاحف)<sup>(٣)</sup>.

ويمكننا أن نحمل قول الزهري: (كنا نكره كتاب العلم، حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء، فرأينا ألا نمنعه أحدًا من المسلمين)<sup>(٤)</sup> - على ما بيناه، لأننا نعرف أن الإمام الزهري كان يكتب الحديث وهو في دور طلب العلم، وكان يشجع أصحابه على الكتابة؛ حتى إنه كان يكتب في ظهر نعله خشية - أن يفوته الحديث<sup>(٥)</sup> وفعلاً عندما طلب منه الخليفة هشام بن عبد الملك أن يكتب لبيته خرج وأملى على الناس الحديث<sup>(٦)</sup> وقال: (استكتبني الملوك، فأكتبتهم، فاستحييت الله إذ كتبها الملوك ألا أكتبها لغيرهم)<sup>(٧)</sup>.

وقد سبق أن بينت أن حرصه على تنقيح السنة كان عاملاً كبيراً في تدوينه الحديث هو وبعض معاصريه.

وكان سعيد بن عبد العزيز يفخر بحفظه ويقول: (ما كتبت حديثاً قط)<sup>(٨)</sup>، ونرى الإمام الأوزاعي بعد أن كان يملئ على طلابه ويصحح لهم ما يكتبونه عنه ليجيزهم بروايته<sup>(٩)</sup>، ينفر من الاعتماد على الكتاب، ويتشأم مما سيؤول إليه الحفظ فلا يسره الميل عن طريق السلف الذين كانوا يتلقون الحديث من أفواه العلماء،

(١) جامع بيان العلم ص ٦٥ ج ١.

(٢) جامع بيان العلم ص ١٢٩ ج ٢.

(٣) تنقيح العلم ص ٤٧.

(٤) المرجع السابق ص ١٠٧، وطبقات ابن سعد ص ٣٥ قسم ٢ ج ٢.

(٥) انظر: تنقيح العلم ص ١٠٧.

(٦) انظر: حلية الأولياء ص ٣٦٣ ج ٣.

(٧) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٧ ج ١.

(٨) سنن الدارمي ص ١٢١ ج ١، وتذكرة الحفاظ ص ٢٠٣ ج ١ وتوفى سعيد بن عبد العزيز سنة (١٦٧هـ).

(٩) انظر: الكفاية ص ٣٢٢.

فيقول: (كان هذا العلم شيئاً شريفاً إذ كان من أفواه الرجال يتلقونه<sup>(١)</sup>)، ويتذاكرونه فلما صار في الكتب ذهب نوره، وصار إليه غير أهله<sup>(٢)</sup>.

ونرى بعض من كره الكتابة في هذا العصر يعتمد عليها في حفظ الحديث ثم يمحو ما كتبه بعد أن يحفظه، وقد فعل غير واحد من السلف أمثال سفيان الثوري (- ١٦١هـ)، وحماد بن سلمة (- ١٦٧هـ)<sup>(٣)</sup> وغيرهما. ويروى في هذا عن خالد الحذاء (- ١٤١هـ): (ما كتبت شيئاً قط إلا حديثاً طويلاً، فإذا حفظته محوته)<sup>(٤)</sup>.

وكان كثير من التابعين يمحون كتبهم قبل وفاتهم، أو يوصون بكتبهم إلى من يثقون به، ليفيد منها، خشية أن تقع في غير مواضعها، فقد أوصى أبو قلابة بكتبه إلى أيوب<sup>(٥)</sup>، كما أوصى شعبة بن الحجاج ابنه بغسل كتبه بعد موته.

إن محاولة هؤلاء المانعين من الكتابة، لم تخفف من نشاط الكتابة، ولم تقف أمام هذا الجيل الذي نشأ عليها، فقد كان تيار إباحة الكتابة أقوى بكثير من تيار كراهتها.

ونرى أيوب السخيتاني (- ١٣١هـ) يرد على من يعيب تقييد الحديث، فيقول: (يعييون علينا الكتاب!! ثم يتلو «عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ»)<sup>(٦)</sup>.

وما لبث التياران أن توحدوا وألحت الحاجة القاهرة إلى الكتابة على هؤلاء المانعين بأن يحاربوا التيار العام، ويعتمدوا في حفظ السنة على الحفظ والكتابة معاً.

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٦٨ ج١ وفيه (بتلافونه) وما أثبتناه أصوب ويتفق مع ما ورد في المصادر الأخرى. وسنن الدارمي ص ١٢١ ج١ وتقييد العلم ص ٦٤، توفي الأوزاعي سنة (١٥٧هـ).

(٢) انظر: تقييد العلم ص ٥٨ - ٦٠.

(٣) المرجع السابق ص ٥٩.

(٤) انظر: طبقات ابن سعد ص ١٣٥ ج٧ وتذكرة الحفاظ ص ٨٨ ج١، وتوفي أبو قلابة سنة (١٠٤هـ).

(٥) انظر: تقييد العلم ص ٦٢، ولد شعبة بن الحجاج سنة (٨٢هـ) وتوفي سنة (١٦٥هـ).

(٦) تقييد العلم ص ١١٠ وسنن الدارمي ص ١٢١ ج١، وجامع بيان العلم ٧٣ ج١.

يقول ابن الصلاح: (ثم إنه زال ذلك الخلاف وأجمع المسلمون على تسوية ذلك، وإباحته، ولولا تدوينه في الكتب لدرس في الأعصر الآخرة)<sup>(١)</sup>.

ويقول الراهزمي: (والحديث لا يضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابلة والمدارسة، والتعهد والتحفظ، والمذاكرة والسؤال، والفحص عن الناقلين، والتفقه بما نقلوه، وإنما كره الكتاب من كرهه في الصدر الأول، لقرب العهد وتقارب الإسناد، ولثلا يعتمد الكاتب فيهمله، ويرغب عن تحفظه، والعمل به، فأما الوقت متباعد، والإسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والنقلة متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون، فإن تقييد العلم بالكتاب أولى وأشفى...)<sup>(٢)</sup>.

ولم تكن ظاهرة الاختلاف هذه ناشئة عن انقسام العلماء إلى حزبين أو مدرستين، إحداهما تبيح الكتابة والأخرى تمنعها، بل نشأت من تلك الأسباب التي بينها، فإذا ما زالت أسباب المنع أباح العلماء الكتابة، وإذا قامت عاد أكثرهم فمنع الكتابة، وإذا ما خيف من الاتكال على الكتاب وإهمال الحفظ علت أصوات المنع ثانية تطالب بالاعتماد على الذاكرة، حتى أجمعت الأمة على الكتابة التي أصبحت من ضروريات الحديث لا يمكن الاستغناء عنها.

### خامساً: المصنفون الأوائل في الحديث

لم يلبث هذا التيار من النشاط العلمي وكتابة الحديث أن طالع العالم بمدونات حديثة مختلفة على يد أبناء النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وقد ظهرت تلك المصنفات والكتب في أوقات متقاربة، وفي مناطق مختلفة من الدولة الإسلامية، فبعد أن كان أهل الحديث يجمعون الأحاديث المختلفة في الصحف والكراريس، أصبحوا يرتبون الأحاديث على الأبواب، وكانت هذه المصنفات تشتمل على السنن وما يتعلق بها، وكان بعضها يسمى مصنفًا وبعضها يسمى جامعًا أو مجموعًا وغير ذلك. وقد اختلف في أول من صنف وبسبب، فقيل عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصري (... ١٥٠هـ) بمكة، ومالك بن أنس

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ١٧١.

(٢) المحدث الفاصل ص ٧١.

(٩٣ - ١٧٩هـ) أو محمد بن إسحاق (- ١٥١هـ) بالمدينة المنورة، وصنف بها محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب (٨٠ - ١٥٨هـ) موطأ أكبر من موطأ مالك، والربيع بن صبيح (- ١٦٠هـ) أو سعيد بن أبي عروبة (- ١٥٦هـ) أو حماد ابن سلمة (- ١٦٧هـ) بالبصرة، وسفيان الثوري (٩٧ - ١٦١هـ) بالكوفة، ومعمّر ابن راشد (٩٥ - ١٥٣هـ) باليمن، والإمام عبد الرحمن بن عمرو والأوزاعي (٨٨ - ١٥٧هـ) بالشام، وعبد الله بن المبارك (١١٨ - ١٨١هـ) بخراسان، وهشيم ابن بشير (١٠٤ - ١٨٣هـ) بواسط<sup>(١)</sup>، وجريير بن عبد الحميد (١١٠ - ١٨٨هـ) بالري، وعبد الله بن وهب (١٢٥ - ١٩٧هـ) بمصر<sup>(٢)</sup>، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسيج على منوالهم، وقد كان هذا التصنيف بالنسبة إلى جمع الأبواب وضمها إلى بعضها في مؤلف أو جامع، وأما جمع حديث إلى مثله في باب واحد، فقد سبق إليه التابعي الجليل عامر الشعبي (١٩ - ١٠٣هـ)، الذي يروى عنه أنه قال: هذا باب من الطلاق جسيم، إذا اعتدت المرأة ورثت<sup>(٣)</sup>، وساق فيه أحاديث<sup>(٤)</sup>.

وكان معظم هذه المصنفات، والمجاميع يضم الحديث الشريف وفتاوى الصحابة والتابعين، كما يتجلى لنا هذا في موطأ الإمام مالك بن أنس<sup>(٥)</sup>، ثم رأى بعضهم

(١) انظر: تاريخ بغداد ص ٥٨ ج ١٤، وتذكرة الحفاظ ص ٢٢٩ ج ١.

(٢) انظر: المحدث الفاصل ص ١٥٥: ب وما بعدها، وتدريب الراوي ص ٤٠ والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١٨٦: ب - ١٨٧: أ ومقدمة فتح الباري ص ٤ ومنهج ذوى النظر ص ٥١٨.

(٣) المحدث الفاصل ص ١٥٥ والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع نسخة الإسكندرية ص ١٨٨: أ، ومقدمة فتح الباري، وتدريب الراوي ص ٤٠.

(٤) تدريب الراوي ص ٤٠، ومنهج ذوى النظر ص ١٨، وهناك أخبار كثيرة، ثبت أن جمع الأبواب بعضها إلى بعض كان بعد جمع الأحاديث في باب واحد. من ذلك ما رواه خالد بن دينار قال: قلت لأبي العالية: أعطني كتابك. قال: ما كتبت إلا باب الصلاة، وباب الطلاق. وقال يحيى بن سعيد كان سفيان صاحب أبواب. وقال سفيان الثوري كم من أحاديث طنانات لا يؤبه لها قد أخرجنا عن صاحب هذا القبر (ابن جريج) في أبواب. انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع نسخة الإسكندرية ص ١٨٨: أ - ١٨٨: ب وعن عاصم الأحول (- ١٤٢هـ) قال: (قرأت على الشعبي أحاديث الفقه فأجازها لي) انظر: الكفاية ص ٢٦٤.

(٥) في موطأ مالك ثلاثة آلاف مسألة وسبعمئة حديث انظر: الرسالة المستطرفة ص ١١.

أن تفرد أحاديث النبي ﷺ في مؤلفات خاصة، فألفت المسانيد، وهي كتب تضم أحاديث رسول الله ﷺ بأسانيد خالية من فتاوى الصحابة والتابعين، تجمع فيها أحاديث كل صحابي - ولو كانت في مواضيع مختلفة - تحت اسم مسند فلان ومسند فلان. وهكذا.

وأول من ألف المسانيد أبو داود سليمان بن الجارود الطيالسي (١٣٣- ٢٠٤هـ)<sup>(١)</sup> وتبعه بعض من عاصره من أتباع التابعي وأتباعهم، فصنف أسد ابن موسى الأموي (- ٢١٢هـ)، وعبيد الله بن موسى العبسي (- ٢١٣هـ)، ومسدد البصري (- ٢٢٨هـ) ونعيم بن حماد الخزازي المصري (- ٢٢٨هـ)، واقتفى الأئمة آثارهم، كأحمد بن حنبل (١٦٤- ٢٤١هـ)، وإسحاق بن راهوية (١٦١- ٢٣٨هـ) وعثمان بن أبي شيبة (١٥٦- ٢٣٩هـ) وغيرهم<sup>(٢)</sup>.

ويعتبر مسند الإمام أحمد بن حنبل - وهو من أتباع التابعين - أو في تلك المسانيد وأوسعها.

جمع هؤلاء الحديث ودونوه بأسانيد، واجتنبوا الأحاديث الموضوعة، وذكروا طرقاً كثيرة لكل حديث، يتمكن بها جهابذة هذا العلم وصيارفته من معرفة الصحيح من الضعيف، والقوى من المعلول، مما لا يتيسر لكل طالب علم، فرأى بعض الأئمة أن يصنفوا في الحديث الصحيح فقط، فصنفوا كتبهم على الأبواب، واقتصروا فيها على الحديث الصحيح، وظهرت الكتب الستة في العصر، عصر أتباع أتباع التابعين، وكان أول من صنف ذلك الإمام أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري (١٩٤- ٢٥٦هـ)، ثم الإمام مسلم بن الحجاج القشيري (٢٠٤- ٢٦١هـ)، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢- ٢٧٥هـ)، وأبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (- ٢٧٩هـ)، وأحمد بن شعيب الخراساني النسائي (٢١٥- ٣٠٣هـ)، ثم ابن ماجه، وهو عبد الله بن محمد

(١) انظر: الرسالة المستطرفة ص ٤٦، وقد طبع هذا المسند طبعة جيدة في حيدرآباد بالهند سنة ١٣٢١.

(٢) انظر: منهج ذوى النظر ص ١٨، وتدريب الراوى ص ٤٠، والرسالة المستطرفة ص ٣٦ - ٤٧.

ابن يزيد بن عبد الله بن ماجه القزوينى (٢٠٧ - ٢٧٣هـ)<sup>(١)</sup>. وقد خدمت هذه الكتب بالشرح والتهديب والاختصار والاستخراج عليها من العلماء الذين جاءوا بعدهم.

### أهم نتائج هذا الفصل:

١- لم يكن السبب فى عدم تدوين السنة رسمياً فى عهده ﷺ جهل المسلمين آنذاك بالكتابة والقراءة، فكان فيهم القارئون الكاتبون، الذين دونوا التنزيل الحكيم، بل كان ذلك لأسباب أخرى، أهمها الخوف من التباس القرآن بالسنة، وكىلا ينشغل المسلمون بكتابة السنة عن كتابة القرآن ودراسته وحفظه.

٢- ليس هناك تعارض بين ما روى عن الرسول ﷺ من إباحة الكتابة وكراهتها، فكرة الكتابة لمن لا يحسنها أو لمن يستطيع الحفظ، وأباحها لمن لا يستطيع الحفظ، وإن كان بعضهم يرى أن النهى كان أول الإسلام حتى لا يلتبس القرآن بالسنة، ثم انتهينا إلى إباحة الرسول ﷺ كتابة السنة مطلقاً، وليست هذه الأخبار من وضع مذاهب متخاصمة متضادة.

٣- ما ورد عن الصحابة والتابعين وأتباعهم من كراهة للكتابة أو إباحتها لم يكن ناشئاً من قيام حزين أحدهما ببيع الكتابة والآخر يكرهها، بل أباحوا الكتابة حين زالت أسباب المنع، وكرهوا الكتابة حين وجدت أسباب منعها وكراهتها، كخشية التباس القرآن بالسنة، أو الانشغال بالسنة عن القرآن، أو خوف مضاهاة الكتاب الكريم بكراريس الحديث وكتبه. وقد ثبتت أخبار الكراهة عن بعض من أباحوا الكتابة، كما ثبتت أخبار الإباحة عن بعض من كرهوا الكتابة، وكانت غايتهم جميعاً واحدة، وهى المحافظة على القرآن والسنة: أن يلتبس أحدهما بالآخر، ثم انعقد الإجماع على إباحة الكتابة حين زالت أسباب كراهتها.

---

(١) ليس من موضوعنا أن نتكلم على هذه الكتب الستة الآن، ولكن لايد من أن نشير إلى أن صحيح الإمام البخارى وصحيح مسلم هما فى الدرجة الأولى من هذه الكتب، ثم تأتى السنن الأربعة فى رتبة تليها، وسنن ابن ماجه دونها جميعاً لأن فيها ما أنكره وضعفه بعض العلماء، ولعلماء الحديث فى ذلك أقوال يضيق بنا المقام لذكرها. انظر: تدريب الراوى ص ٣٩، ٤٠، ٤٧، ٤٩، وسبل السلام ص ١١، ١٢ ج١.

٤- خشى عمر بن عبد العزيز اندراس السنة، وتسرب الوضع إليها، فأمر بجمعها على أيدي كبار علماء التابعين، وأمر المسؤولين في مختلف أقاليم الدولة الإسلامية بالاعتناء بالحديث الشريف، وتشجيع العلماء على عقد حلقات دراسته في المساجد، وشارك عمر بن العزيز نفسه العلماء في ذلك، ووزع قبل وفاته ما كتبه الإمام الزهري، فلعمرو الفضل الكبير في تحميل الدولة مسؤولية حفظ السنة رسمياً.

وأما التدوين الفردى فقد وقع في عهد الرسول ﷺ، وفي عهد الصحابة والتابعين، ولم تبق السنة مهمة طيلة القرن الأول إلى عهد عمر بن عبد العزيز، بل تم حفظها في الصدور جنباً إلى جنب مع حفظها في الصحف والكراريس.

٥- في مطلع القرن الهجرى الثانى، تحول عمل العلماء من جمع الحديث وتقييده، إلى تصنيفه على الأبواب وضم هذه الأبواب إلى بعضها في مصنف أو جامع، فلم يكن مطلع هذا القرن مبدأ لتدوين السنة وتقييدها، بل كان مبدأ للتصنيف على الأبواب، وقد ظهرت هذه المصنفات في أوقات متقاربة في مختلف مراكز الإشعاع العلمى بالدولة الإسلامية.

ثم ظهرت المسانيد فالصحيح، وبهذا يكون تدوين الحديث، قد مر بمراحل منتظمة حتى انتهى إلينا فى كتب الصحيح والمسانيد.

\*\*\*

## الفصل الثاني

### ما دون في صدر الإسلام...

من الثابت أن بعض الصحابة كانوا قد كتبوا عن رسول الله ﷺ بعض أحاديثه بإذن خاص منه كعبد الله بن عمرو، والأنصاري الذي كان لا يحفظ الحديث، ثم كتب غيرهم جانباً من حديثه بعد إذنه ﷺ بالكتابة إذناً عاماً كما سبق، ولدينا أخبار كثيرة عما كتبه الصحابة من صحف.

غير أننا لا نعرف كل ما تضمنته هذه الصحف، لأن بعض الصحابة والتابعين كانوا يحرقون ما لديهم من الصحف أو يغسلونها قبل وفاتهم، وكان بعضهم يوصي بما عنده لمن يثق به، كانوا يفعلون هذا خشية أن تؤول تلك الصحف إلى غير أهل العلم<sup>(١)</sup>. ونحن لا نشك في أن كثيراً من صحف الصحابة قد كتبت في عهده عليه الصلاة والسلام، وأن أكثر ما كتب تناقله الناس في حياة أصحابه وبعد وفاتهم عن طريق أبنائهم وأحفادهم أو ذويهم. روى ابن عبد البر بسنده عن أبي جعفر محمد بن علي قال: وجد في قائم سيف رسول الله ﷺ صحيفة فيها مكتوب: «ملعون من سرق تخوم الأرض، ملعون من تولى غير مواليه. أو قال ملعون من جحد نعمة من أنعم عليه<sup>(٢)</sup>».

وقد اشتهر في عهد رسول الله ﷺ كتاب خطير الشأن هو ذلك الكتاب الذي أمر رسول الله ﷺ كتابه بتدوينه في السنة الأولى للهجرة، وقد نصت فيه حقوق المسلمين المهاجرين والأنصار وعرب يثرب وموادعة يهودها، وتكررت فيه عبارة (أهل الصحيفة) خمس مرات، وجاء في مقدمته: (هذا كتاب محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم

(١) من أخبار محو الكتب وحرقها ما فعله أبو بكر رضي الله عنه بما كان عنده من الصحف انظر: تذكرة الحفاظ ص ٥ ج ١، وانظر: أخبار غيره في تقييد العلم ص ٥٩-٦٣ وفي كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٢، وفي الجامع لأخلاق الراوي ص ٤٤: ١.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ص ٧١ ج ١.

وجاهد معهم: أنهم أمة واحدة دون الناس... إلخ<sup>(١)</sup> هذا دليل على أن هذا الدستور أو الميثاق للدولة الإسلامية الفتية، كان مدوناً في صحيفة اشتهر أمرها وتواتر نقلها.

وربما أرسل رسول الله ﷺ بعض الأحكام مكتوبة إلى عماله ومن هذا ما يرويه ابن أبي ليلي عن عبد الله بن عكيم، قال قرئ علينا كتاب رسول الله ﷺ: «أن لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب<sup>(٢)</sup>».

وكتب أبو بكر لأنس بن مالك كتاباً فيه الصدقات التي فرضها رسول الله ﷺ، وفي رواية أن الكتاب كان مهوراً بخاتم رسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup>.

وروى نافع عن ابن عمر أنه وجد في قائم سيف عمر بن الخطاب رضى الله عنه صحيفة فيها صدقة السوائم<sup>(٤)</sup>، وقد تكون هذه النسخة هي التي ورثها سالم ابن عبد الله بن عمر، وقرأها عنده ابن شهاب الزهري<sup>(٥)</sup>. ويؤكد لنا هذا ما روى عن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى قال: (لما استخلف عمر بن العزيز أرسل إلى المدينة يلتبس كتاب رسول الله ﷺ في الصدقات، وكتاب عمر بن الخطاب... ووجد عند آل عمر كتاب عمر في الصدقات، مثل كتاب رسول الله ﷺ، قال: فنسخا له<sup>(٦)</sup>).

(١) سيرة ابن هشام ص ١١٩ ج ٢، والأموال ص ٢٠٢، وانظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي ص ١٥.  
(٢) معرفة علوم الحديث ص ٨٦، وقال الحاكم: هذا منسوخ بحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بشاة ميتة فقال: «هلا استمتعتم بجلدها؟ قالوا يا رسول الله إنها ميتة، فقال إنما حرم أكلها» انظر: معرفة علوم الحديث ص ٨٦، وانظر: أخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث ص ٢٧.  
(٣) رد الدارمي على بشر المريسي ص ١٣١، وذكر الإمام أحمد هذا الكتاب في مسنده ص ١٨٣، ١٨٤ حديث ٧٢ ج ١.

(٤) انظر: الكفاية ص ٣٥٣، ٣٥٤، وانظر: توجيه النظر ص ٣٤٨.

(٥) انظر: الأموال ص ٣٦٠ ورد الدارمي على بشر ص ١٣١.

(٦) الأموال ص ٣٥٨، ٣٥٩ ويقال كان عند عمر بن الخطاب نسخ العهود والمواثيق ملء، صندوق إلا أنها احترقت يوم الجماجم (٨٢هـ) وما بقى منها قضت عليه ظروف الزمن وغارة التتار انظر: الوثائق السياسية، المقدمة: ٥ وقد بقيت بعض كتبه ﷺ حتى القرن التاسع الهجري ككتابه بإقطاع تميم الدارمي، انظر: مسالك الأبصار ص ١٧٣-١٧٥.

وقد اشتهرت صحيفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب التي كان يعلقها في سيفه، فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، وحرم المدينة، ولا يقتل مسلم بكافر<sup>(١)</sup>.

وروى عن ابن الحنفية: محمد بن علي بن أبي طالب (-٨١هـ) قال: أرسلني أبي قال: (خذ هذا الكتاب، فاذهب به إلى عثمان. فإن فيه أمر النبي ﷺ بالصدقة<sup>(٢)</sup>).

وروى عن مسعر عن معن قال: (أخرج لي عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابا، وحلف لي أنه بخط أبيه بيده<sup>(٣)</sup>).

وكان عند سعد بن عبادة الأنصاري (-١٥هـ) كتاب أو كتب فيها طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ، وقد روى ابن هذا الصحابي من كتب أبيه بعض أعمال الرسول ﷺ<sup>(٤)</sup>. ويروى الإمام البخاري أن هذه الصحيفة كانت نسخة من صحيفة عبد الله بن أبي أوفى، الذي كان يكتب الأحاديث بيده، وكان الناس يقرءون عليه ما جمعه بخطه<sup>(٥)</sup>.

وكان عند أبي رافع مولى رسول الله ﷺ (-٣٥هـ)<sup>(٦)</sup> كتاب فيه استفتاح الصلاة، دفعه إلى أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث (-٩٤هـ)<sup>(٧)</sup> أحد الفقهاء السبعة.

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد ص ٣٥، ٤٤، ١٢١، ١٣١ ج٢ وفتح الباري ص ٨٣ ج٧ ورد الدارمي على بشر ص ١٣٠.

(٢) رد الدارمي على بشر ص ١٣٠، وفتح الباري ص ٢٣ ج٧.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٢ ج١.

(٤) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٧٢ ج١، ونظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص ١١٨ وانظر: صحيفة همام بن منبه ص ١٦ نقلا عن الترمذي.

(٥) انظر: علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحي الصالح ص ١٣ وهامشها وفيه (عبد الله بن أوفى) وهو خطأ مطبعي والصواب (عبد الله بن أبي أوفى) انظر: صحيح البخاري بشرح السندی ص ١٤٣ ج٢ باب الصبر عند القتال. وعبد الله بن أبي أوفى صحابي شهد الحديبية، وعمر بعد النبي ﷺ، توفي سنة ٨٧هـ) وهو آخر من توفي بالكوفة من الصحابة. انظر: تقريب التهذيب ص ٤٠٢ ج١.

(٦) وقيل وفاته بعد قتل عثمان وقيل مات في خلافة علي رضي الله عنهما.

(٧) انظر: الكفاية ص ٣٣٠.

وكان عند أسماء بنت عميس (-٣٨هـ) كتاب جمعت فيه بعض أحاديثه ﷺ<sup>(١)</sup>.  
 عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري (-٤٢هـ)<sup>(٢)</sup>  
 وجدنا في ذؤابة سيفه كتابا: (بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت النبي ﷺ يقول:  
 إن لربكم في بقية دهركم نفحات، فتعرضوا له...<sup>(٣)</sup>).  
 وكتبت سبيعة الأسلمية إلى عبد الله بن عتبة تروى عن النبي ﷺ أنه أمرها  
 بالنيكاح بعد قليل من وفاة زوجها بعد ما وضعت<sup>(٤)</sup>.  
 وكتب رسول الله ﷺ كتابا لوائل بن حجر (-٥٠هـ) لقومه في حضرموت،  
 فيه الخطوط الكبرى للإسلام، وبعض أنصبة الزكاة، وحد الزنا، وتحريم الخمر،  
 وكل مسكر حرام<sup>(٥)</sup>.  
 وولى رسول الله ﷺ عمرو بن حزم (-٥٣هـ) على اليمن، وأعطاه كتابا فيه  
 الفرائض والسنن والديات وغير ذلك<sup>(٦)</sup>.

وكان أبو هريرة (-٥٩هـ) يحتفظ بكتب فيها أحاديث عن رسول الله ﷺ.

روى الفضيل بن حسن بن عمرو بن أمية الضمري عن أبيه أنه قال: تحدثت  
 عند أبي هريرة بحديث فأنكره، فقلت إني قد سمعته منك، فقال: إن كنت سمعته  
 مني فهو مكتوب عندي، فأخذ بيدي إلى بيته، فأرانا كتباً كثيرة من حديث  
 رسول الله ﷺ، فوجد ذلك الحديث، فقال: قد أخبرتك أنني إن كنت حدثتك به

(١) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص ١١٨.

(٢) كان محمد بن مسلمة من أفضل الصحابة وهو أحد الثلاثة الذين قتلوا كعب بن الأشرف واستخلفه ﷺ على المدينة في بعض غزواته، اعتزل الفتن ولم يشهد الجمل ولا صفين وتوفي وهو ابن (٧٧) سنة.  
 انظر: تهذيب التهذيب ص ٤٥٤ ج ٩.

(٣) المحدث الفاضل ١١٢.

(٤) الكفاية ص ٣٣٧، وسبيعة هذه هي بنت الحارث زوجة سعد بن خولة انظر: تهذيب التهذيب ص ٤٣٤ ج ١٢.

(٥) انظر: الإصابة ص ٣١٢ ج ٦ وانظر: تفصيل ذلك في المصباح المضيء ص ١١٢: ١-١١٢: ب.

(٦) انظر: الإصابة ص ٢٩٣ ج ٤ ترجمة (٥-٥٨). وقد أخرج الكتاب أبو داود والنسائي وابن حبان والدارمي وغير واحد كما ذكر ابن حجر في ترجمته وانظر: رد الدارمي على بشر ص ١٣١ وانظر: فتوح البلدان ص ٨١ وقارن بالأموال ص ٣٥٨، ٣٥٩.

فهو مكتوب عندي<sup>(١)</sup>. وكان بشير بن نهيك قد قرأ عليه الكتاب الذي كتبه عنه قبل أن يفارقه<sup>(٢)</sup>.

وجمع سمرة بن جندب (- ٦٠هـ) أحاديث كثيرة في نسخة رواها عنه ابنه سليمان<sup>(٣)</sup>، ويحتمل أن تكون هذه النسخة هي الرسالة التي كتبها سمرة إلى بنيه، وقال فيها محمد بن سيرسن (في رسالة سمرة إلى بنيه علم كثير<sup>(٤)</sup>).

الصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص (٧ق هـ - ٦٥هـ):

كان رسول الله ﷺ قد سمح لعبد الله بن عمرو رضى الله عنهما بكتابة الحديث، لأنه كان كاتباً محسناً، فكتب عنه الكثير، واشتهرت صحيفة ابن عمرو رضى الله عنه (بالصحيفة الصادقة) كما أراد كاتبها أن يسميها، لأنه كتبها عن رسول الله ﷺ، فهي أصدق ما يروى عنه، وقد رآها مجاهد بن جبر (٢١- ١٠٤هـ) عند عبد الله بن عمرو، فذهب ليتهاولها، فقال له: (مه يا غلام بنى مخروم) قال مجاهد: قلت: ما كتبت شيئاً. قال: (هذه الصادقة فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ وليس بينى وبينه فيها أحد<sup>(٥)</sup>)، وكانت هذه الصحيفة عزيزة جداً على ابن عمرو حتى قال (ما يرغبنى فى الحياة إلا الصادقة والوهظ<sup>(٦)</sup>)، وربما

(١) انظر: جامع بيان العلم ص ٧٤ ج ١. قال ابن عبد البر بعد هذا الخبر (هذا خلاف ما تقدم فى أول الباب عن أبى هريرة أنه لم يكتب، وأن عبد الله بن عمرو كتب وحديثه بذلك أصح فى الثقل من هذا لأنه أثبت إسناداً عند أهل الحديث) وقال ابن حجر أقوى من ذلك أنه لا يلزم من وجود الحديث مكتوباً عنده أن يكون بخطه، وقد ثبت أنه لم يكن يكتب، فتعين أن المكتوب عنده بغير خطه. انظر: فتح البارى ص ٢١٨ ج ١ أقول وصحة خبر عدم كتابة أبى هريرة لا تنفى صحة وجود الكتب عنده، وقد يكون ممن يعرف القراءة دون الكتابة، فيكلف من يكتب له.

(٢) طبقات ابن سعد ١٦٢ ج ٧ والعلم لزهير بن حرب: ١٩٣. ب والجامع لأخلاق الراوى ص ١٣٧: ب. والمحدث الفاصل ص ١٢٨: أ.

(٣) انظر: تهذيب التهذيب ص ١٩٨ ج ٤.

(٤) المرجع السابق ٢٣٦ ج ٤ أخرج البخارى أول رسالة سمرة بن جندب إلى بنيه فى ترجمة محمد ابن إبراهيم بن خبيب وفيها: (بسم الله الرحمن الرحيم، من سمرة بن جندب إلى بنيه: إن رسول الله ﷺ كان يأمرنا أن نصلى كل ليلة من المكتوبة ما قل أو كثر ونجعلها وتراً). التاريخ الكبير ص ٢٦ ترجمة ٢٩ قسم ١ ج ١.

(٥) المحدث الفاصل نسخة دمشق ص ٢: ب ج ٤ وطبقات ابن سعد ص ١٨٩ قسم ١ ج ٧ ونحوه فى تقييد العلم ص ٨٤.

(٦) سنن الدارمى ص ١٢٧ ج ١ والوهظ أرض لعمر بن العاص تصدق بها، كان يقوم بها، المصدر نفسه.

كان يحفظها في صندوق له حلق<sup>(١)</sup>، خشية عليها من الضياع، وقد حفظ هذه الصحيفة أهله من بعده، ويرجح أن حفيده عمرو بن شعيب كان يحدث منها<sup>(٢)</sup>.

وتضم صحيفة عبد الله بن عمرو ألف حديث كما يقول ابن الأثير<sup>(٣)</sup>.

إلا أن إحصاء أحاديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده لا يبلغ خمسمائة حديث<sup>(٤)</sup>، وإذا لم تصلنا الصحيفة الصادقة كما كتبها ابن عمرو بخطه، فقد نقل إلينا الإمام أحمد محتواها في مسنده<sup>(٥)</sup>، كما ضمت كتب السنن الأخرى جانباً كبيراً منها<sup>(٦)</sup>.

ولهذه الصحيفة أهمية علمية عظيمة، لأنها وثيقة علمية تاريخية، تثبت كتابة الحديث النبوي الشريف، بين يدي رسول الله ﷺ وبإذنه<sup>(٧)</sup>.

(١) انظر: مسند الإمام أحمد ص ١٧١ حديث ٦٦٤٥ ج ١٠، وكتاب العلم للمقدسى ص ٣٠ بإسناد صحيح.

(٢) انظر: تهذيب التهذيب ص ٤٨، ٤٩ ج ٨.

(٣) انظر: أسد الغابة ص ٢٣٣ ج ٣.

(٤) انظر: مسند عبد الله بن عمرو وصحيفته الصادقة ص ٦٧١ حيث أحصى السيد محمد سيف الدين عlish أحاديث الصادقة، فكان منها:

٢٠٢ حديثاً من أصل ٦٣٢ حديثاً رواها الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو.

و ٨١ حديثاً من أصل ٢٣٢ حديثاً رواها أبو داود في مسنده عن عبد الله بن عمرو.

و ٥٣ حديثاً من أصل ١٢٨ حديثاً رواها النسائي في مسنده عن عبد الله بن عمرو.

و ٦٥ حديثاً من أصل ١١٧ حديثاً رواها ابن ماجه في مسنده عن عبد الله بن عمرو.

و ٣٥ حديثاً من أصل ٨٩ حديثاً رواها الترمذى في مسنده عن عبد الله بن عمرو.

فصدد أحاديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهى أحاديث الصادقة كما هو المرجح بلغ (٤٣٦) حديثاً بما فيه المكرر عند الإمام أحمد وفى السنن الأربعة، وقد يكون حكم ابن الأثير مبنيًا على أن جميع ما روى عن ابن عمرو هو الصادقة وليس ببعيد.

(٥) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل بتحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر: الجزء التاسع من الصفحة ٢٣٥ الحديث ٦٤٧٧ والجزء العاشر بكامله وكذلك الحادى عشر والجزء الثانى عشر إلى الصفحة ٥٠ الحديث ٧١٠٣.

(٦) انظر: مسند عبد الله بن عمرو وصحيفته الصادقة ص ٦٧١.

(٧) ورد طعن فى الصحيفة الصادقة من بعض أهل العلم كالمغيرة بن مقسم الضبى الذى قال: (كانت لعبد الله

ابن عمرو صحيفة تسمى الصادقة ما تسرنى أنها لى بفلسين) انظر: تأويل مختلف الحديث ص ٩٣، وفى

ميزان الاعتدال ص ٢٩٠ ج ٢ (ما يسرنى أن صحيفة عبد الله بن عمرو عندى بتمرئين أو بفلسين). إذا

صحت هذه الرواية عن المغيرة فلا يجوز حملها على ظاهرها ولا قبولها هكذا مقتضبة لأنه ذكر ذلك فى

معرض الكلام على الروايات الضعيفة، فإذا ضعف نسخة ابن عمرو قائما ضعفها لأنها انتقلت (وجادة)

فهو لا يقبل أن تكون عنده هذه الصحيفة بالطريق الذى حملها الرواة، لأن الوجادة أضعف طرق =

وكان عبد الله يملئ الحديث على تلاميذه،<sup>(١)</sup> وقد نقل عنه تلميذه حسين ابن شفى بن ماتع الأصبهى فى مصر كتابين، أحدهما فيه (قضى رسول الله ﷺ فى كذا، وقال رسول الله ﷺ كذا، والآخر ما يكون من الأحداث إلى يوم القيامة)<sup>(٢)</sup>. ونحن هنا لم نتعرض إلا للصحيفة الصادقة، فقد كان عند ابن عمرو كتب كثيرة عن أهل الكتاب أصابها يوم اليرموك فى زاملتين<sup>(٣)</sup>، وقد ادعى بشر المرسى أن (عبد الله بن عمرو كان يرويها للناس عن النبي ﷺ، وكان يقال له لا تحدثنا عن الزاملتين)، وهذه الدعوى باطلة، فقد ثبت أن ابن عمرو كان أميناً فى نقله، وروايته، لا يحيل ما روى عن النبي ﷺ على أهل الكتاب، كما لا يحيل ما روى عن أهل الكتاب على النبي ﷺ<sup>(٤)</sup>.

= النحل، فقد كانوا لا يحبون أن يقلوا الأخبار من الصحف بل عن الشيوخ، ولا يجوز أن يحمل قول المغيرة على غير هذا الوجه، لأنه ثبت أن عبد الله قد كتبها بين يدي النبي ﷺ. ويمكننا للاستئناس أن نراجع أقوال العلماء فى روى هذه الصحيفة فى ميزان الاعتدال ص ٢٨٩ ج ٢ وفى تهذيب التهذيب ص ٤٨-٥٥ ج ٨ وفى فتح المغيب ص ٦٨، ٦٩ ج ٤ حيث يتبين لنا قيمة الصحيفة وثقة راويها عمرو ابن شعيب. قال الإمام تقي الدين بن تيمية: (وأما أئمة الإسلام وجمهور العلماء فيحتجون بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، إذا صح النقل إليه مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينة ونحوهما، ومثل الشافعى وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية. قالوا: (وإذا كانت نسخة مكتوبة من عهد النبي ﷺ كان هذا أوكد لها وأدل على صحتها) ولهذا كان فى نسخة عمرو بن شعيب من الأحاديث الفقهية التى فيها مقدرات ما احتاج إليه عامة علماء الإسلام) انظر: قواعد التحديث ص ٣٦، ٣٧.

(١) انظر: تاريخ دمشق ص ٤٩ ج ٦. (٢) خطط المقرئى ص ٣٣٢، ٣٣٣ ج ٢.

(٣) الزاملة هى البعير الذى يحمل عليه الطعام والمتاع. وقيل هى الدابة التى يحمل عليها الطعام والمتاع من الإبل وغيرها. انظر: لسان العرب مادة (زمل) ص ٣٢٩ ج ١٣.

(٤) انظر: رد الدارمى على بشر ص ١٣٦، وقد ذكر محمود أبو رية صاحب كتاب أضواء على السنة المحمدية فى الصفحة ١٦٢ هامش (٣) أن عبد الله بن عمرو (كان قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، وكان يرويها للناس (عن النبي ﷺ) فتجنب الأخذ عنه كثير من أئمة التابعين، وكان يقال له: لا تحدثنا عن الزاملتين ص ١٦٦ ج ١ فتح البارى) انتهى ما نقلناه عن أضواء على السنة المحمدية ومن العجيب أن يسمع إنسان مثل هذا الخبر ويصدق لأن الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا أصدق الناس لساناً، وأنقى الأمة قلوباً، وأخلص البرية للرسول ﷺ، فلا يعقل أن يكذب أمثال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما على رسول الله ﷺ فيعزو إليه ما سمعه من أهل الكتاب. فهرعت إلى فتح البارى وإذا به - شهد الله - خالياً من عبارة أبى رية، فليس فى قول ابن حجر (عن النبي) إنما زادها الكاتب من عنده!!!

فهل تكذيب الصحابة، والافتراء عليهم، والانتحال على العلماء، أمثال ابن حجر وغيره من الأمانة العلمية؟؟ وقد ثبت لنا سوء نية أبى رية فى مواضع كثيرة يظهر بعضها فى بحثنا عن أبى هريرة.

ويكفي ابن عمرو فخراً أنه كان أول من دون الحديث بين يدي رسول الله ﷺ بإذنه وفي مختلف أحواله في الغضب والرضا.

كتب ابن عباس (٣ ق هـ - ٦٨ هـ).

اشتهر ابن عباس بطلب العلم ودأبه عليه، وكان بعد وفاة رسول الله ﷺ يسأل الصحابة ويكتب عنهم، وكان رسول الله ﷺ قد دعا له فقال: (اللهم ألهمه الحكمة وعلمه التأويل<sup>(١)</sup>)، وعندما توفي ابن عباس ظهرت كتبه، وكانت حمل بعير<sup>(٢)</sup>.

ويروى أن عبد الله بن عمر (١٠ ق هـ - ٧٣ هـ) كان إذا خرج إلى السوق نظر في كتبه وقد أكد الراوي أن كتبه هذه كانت في الحديث<sup>(٣)</sup>.

صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري (١٦ ق هـ - ٧٨ هـ):

يحتمل أن تكون هذه الصحيفة غير المنسك الصغير الذي أورده مسلم في كتاب الحج<sup>(٤)</sup>، وقد ذكرها ابن سعد في ترجمة مجاهد، وكان يحدث عنها<sup>(٥)</sup>، وكان التابعي الجليل قتادة بن دعامة السدوسي (- ١١٨ هـ) يرفع من قيمة هذه الصحيفة ويقول (لأنا بصحيفة جابر بن عبد الله أحفظ مني لسورة البقرة<sup>(٦)</sup>).

وفي رواية: (إنما يحدث قتادة عن صحيفة سليمان الشكري، وكان له كتاب عن جابر بن عبد الله<sup>(٧)</sup>). ويحتمل أن يكون سليمان الشكري قد نقل عن جابر

(١) الكفاية ص ٢١٣، وراجع طلبه للعلم في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٤: أ، وفي تقييد العلم ص ٩١، ٩٢، ١٠٩ وانظر ترجمته في الفصل الأول من الباب الخامس من هذا الكتاب.

(٢) عن موسى بن عقبة (- ١٤١) صاحب المغازي قال: (وضع عندنا ابن كريب مولى ابن عباس حمل بعير من كتب ابن عباس) انظر: طبقات ابن سعد ص ٢١٦ ج ٥.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٠٠: أ ويروى أن ابن عمر كره كتابة الحديث، قال سعيد ابن جبير (٤٥-٩٥ هـ) كنت أسأل ابن عمر في صحيفة ولو علم بها كانت الفيصل بيني وبينه. انظر: طبقات ابن سعد ص ١٧٩ ج ٦، وربما كان ابن عمر يكتب لنفسه أو سمع بذلك آخراً.

(٤) انظر: تذكرة الحفاظ ص ٤١ ج ١.

(٥) طبقات ابن سعد ص ٤٣٣ ج ٥.

(٦) طبقات ابن سعد ص ١-٢ قسم ٢ ج ٧.

(٧) القياس لابن قيم الجوزية ص ١٠٨.

صحيفته، وهو أحد تلاميذه، يروى ابن حجر أن سليمان جالس جابراً، وكتب عنه صحيفة<sup>(١)</sup>، ولعل قتادة كان قد روى صحيفة جابر بن عبد الله عن سليمان الشكري، فإن أم سليمان قدمت بكتاب سليمان، فقرأ على ثابت و قتادة وأبي بشر... فرووها كلها، وأما ثابت فروى منها حديثاً واحداً<sup>(٢)</sup>، فصحيفة جابر كانت مشهورة، وكتاب سليمان الشكري عنه كان مشهوراً أيضاً، ويدعم هذا روايات كثيرة، منها ما روى عن شعبة أنه كان يرى أن أحاديث أبي سفيان طلحة بن نافع عن جابر إنما هو كتاب سليمان الشكري<sup>(٣)</sup> وكانت لجابر حلقة في المسجد النبوي يلقى فيها على طلابه الحديث، فكتب منهم كثير أمثال وهب ابن منبه (-١١٤هـ)<sup>(٤)</sup>، وقد روى أبو الزبير وأبو سفيان والشعبي عن جابر وهم قد سمعوا منه وأكثر ما روه من الصحيفة<sup>(٥)</sup>.

ويروى عن عروة بن الزبير (٢٢-٩٣هـ) قوله: (كتبت الحديث ثم محوته، فوددت أنى قديته بما لى وولدى وأنى لم أمحه<sup>(٦)</sup>) وربما كتب غيرها ثم احترقت يوم الحرة فحزن عليها، فكان يقول: (وددت لو أن عندى كتيبى بأهلى ومالى<sup>(٧)</sup>).

(١) انظر: تهذيب التهذيب ص ٢١٤ ج٤ وانظر: تقييد العلم ص ١٠٨ حول كتابته.

(٢) انظر: الكفاية ص ٣٥٤.

(٣) انظر: مقدمة الجرح والتعديل ص ١٤٤، ١٤٥.

(٤) انظر: صحيفة همام بن منبه ص ١٤. وكان كثير من التابعين يذهبون إلى جابر رضى الله عنه يكتبون عنه الحديث، من هذا ما روى عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال: كنت أختلف إلى جابر بن عبد الله أنا ومحمد وأبو جعفر. معنا ألواح نكتب فيها: انظر: تقييد العلم ص ١٠٤، وأبو جعفر هو محمد بن علي (-١١٤هـ) ومحمد هو ابن الحنفية. كما كتب عنه أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس (-١٢٦هـ) كثيراً انظر: تهذيب التهذيب ص ٤٤٠، ٤٤١ ج٩.

(٥) انظر: تهذيب التهذيب ص ٢١٤ ج٤، وعرضت على الشعبي صحيفة كتبت عن جابر فقال سمعت هذا كله عن جابر رضى الله عنه المحدث الفاضل ص ٩١ ب.

(٦) تقييد العلم ص ٦٠ ونحوه فى المحدث الفاضل نسخة دمشق ص ٤: ب ج٤.

(٧) جامع بيان العلم وفضله ص ٧١ ج١، وفى رواية ابن سعد أنها كتب (فقه) انظر: طبقات ابن سعد ص ١٣٣ ج٥.

وكان عند خالد بن معدان الكلاعي الحمصي (- ١٠٤هـ) مصحف له أزرار وعرا أودع فيه علمه<sup>(١)</sup>. وكان عند بحير بن سعيد نسخة عن خالد بن معدان<sup>(٢)</sup>.

وأوصى أبو قلابة (عبد الله بن زيد الجرمي .. ١٠٤هـ) بكتبه لأيوب السختياني (٦٨-١٣١هـ) فجيء بها عدل راحلة<sup>(٣)</sup>، ودفع أيوب كراءها بضعة عشر درهما<sup>(٤)</sup>.

وقال الأعمش قال الحسن البصري (٢١-١١٠هـ) إن لنا كتباً نتعاهد بها<sup>(٥)</sup>. وكان عند محمد الباقر بن علي بن الحسين (٥٦-١١٤هـ) كتب كثيرة سمع بعضها منه ابنه جعفر الصادق. وقرأ بعضها<sup>(٦)</sup>.

وكان عند مكحول الشامي كتب<sup>(٧)</sup> وعند الحكم بن عتبة<sup>(٨)</sup>، وكان عند بكير ابن عبد الله بن الأشج (- ١١٧هـ) عالم المدينة كتب انتقلت إلى ابنه مخزومة ابن بكير<sup>(٩)</sup>.

وكان عند قيس بن سعد المكسي (- ١١٧هـ) كتاب انتقل إلى حماد ابن سلمة (- ١٦٧هـ)<sup>(١٠)</sup>.

ومما لا شك فيه أن العلماء في مطلع القرن الهجري الثاني صنفوا كثيراً من الكتب، وكثرت الكتب بين أيديهم، حتى بلغت كتب الإمام الزهري حداً كبيراً،

- 
- (١) انظر: تذكرة الحفاظ ص ٨٨ ج ١.
  - (٢) انظر: تذكرة الحفاظ ص ١٦٦ ج ١.
  - (٣) انظر: طبقات ابن سعد ص ٢١٦ ج ٥ وتذكرة الحفاظ ص ٨٨ ج ١.
  - (٤) انظر: طبقات ابن سعد ص ٢١٧ قسم ٢ ج ٧.
  - (٥) انظر: المحدث الفاضل نسخة دمشق ص ٣، ب ج ٤ كما كانت له كتب حديث وفقه وكان بعض أصحابه يأخذها فينسخها ثم يردها. انظر: طبقات ابن سعد ص ١٧ قسم ٢ ج ٧.
  - (٦) انظر: تهذيب التهذيب ص ١٠٤ ج ٢، ومحمد الباقر أحد الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. انظر: تهذيب التهذيب ص ٣٥٠ ج ٩ وشذرات الذهب ص ١٤٩ ج ١.
  - (٧) الفهرست لابن النديم ص ٣١٨.
  - (٨) انظر: مقدمة الجرح والتعديل ص ١٢٠.
  - (٩) انظر: تهذيب التهذيب ص ٧٠، ٧١ ج ١٠، وعلوم الحديث ١١٠.
  - (١٠) تذكرة الحفاظ ص ١٩٠ ج ١.

نقلت بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان (٨٨ - ١٢٦هـ) من خزائنه على الدواب<sup>(١)</sup>.

وقبل أن نتكلم عن شيوع التدوين وانتشاره في مطلع القرن الهجري الثاني وعن كتب ومصنفات العلماء آنذاك، لا بد لنا من أن نتكلم عن صحيفة همام بن منبه لما لها من أهمية تاريخية في تدوين الحديث.

الصحيفة الصحيحة لهمام بن منبه (٤٠ - ١٣١هـ)<sup>(٢)</sup>.

لقي همام بن منبه أحد أعلام التابعي الصحابي الجليل أبا هريرة، وكتب عنه كثيراً من حديث رسول الله ﷺ. وجمعه في صحيفة أو صحف أطلق عليها اسم (الصحيفة الصحيحة)<sup>(٣)</sup>، وربما سماها بالصحيفة على مثال (الصحيفة الصادقة) لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، وحق له أن يسميها بالصحيفة، لأنه كتبها عن صحابي خالط رسول الله ﷺ أربع سنين، وروى عنه الكثير.

وقد وصلتنا هذه الصحيفة كاملة، كما رواها ودونها همام عن أبي هريرة، فقد عثر على هذه الصحيفة الدكتور المحقق محمد حميد الله في مخطوطتين متماثلتين في دمشق وبرلين<sup>(٤)</sup>.

وتزداد ثقتنا بصحيفة همام حينما نعلم أن الإمام أحمد قد نقلها بتمامها في مسنده، كما نقل الإمام البخاري عدداً كثيراً من أحاديثها في صحيحه في أبواب شتى<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ص ١٤١ ج ٥.

(٢) ذكر الدكتور صبحي الصالح وفاة همام سنة (١٠١هـ) اعتماداً منه على طبقات ابن سعد ص ٣٩٦ ج ٥ لأنها أقدم المصادر ثم قال في هامش الصفحة ٢٢ من كتابه علوم الحديث ومصطلحه: (وعند ابن حجر والنوري وسواهما توفي همام سنة ١٣١هـ ولعله تصحيف لقول ابن سعد (مات سنة إحدى أو اثنتين ومئة) وانظر التصحيحات الملحق بصحيفة همام ص ٢). إلا أنني أرجح وفاته سنة (١٣١هـ) لأن سفيان ابن عيينة قال: كنت أتوقع قدوم همام عشر سنين، وسفيان بن عيينة ولد سنة (١٠٧هـ) فلا يعقل أن يقول هذا بعد وفاة همام بسنوات، ثم إن معمرًا كان قد أدركه وقد كبر وسقط حاجباه على عينيه، فهذا الوصف ينطبق على من سنه أكثر من ستين سنة وهي السن التي ذكرتها وقالها غير ابن سعد. انظر: تهذيب التهذيب ص ٦٧ ج ١١. حيث ذكر إدراك معمر بن راشد لهمام.

(٣) أقدم تدوين في الحديث النبوي صحيفة همام بن منبه ص ٢٠ كشف الظنون.

(٤) راجع صحيفة همام ص ٢١ - ٢٣ حيث وصف الدكتور حميد الله المخطوطتين.

(٥) انظر: المرجع السابق ص ٢٠.

ولهذه الصحيفة أهمية تاريخية فى تدوين الحديث الشريف، لأنها حجة قاطعة، ودليل ساطع على أن الحديث النبوى كان قد دون فى عصر مبكر (وتصحح الخطأ الشائع: أن الحديث لم يدون إلا فى أوائل القرن الهجرى الثانى)<sup>(١)</sup>، ذلك لأن هماماً لقى أبا هريرة - ولا شك أنه كتب عنه - قبل وفاته وقد توفى أبو هريرة سنة (٥٩) للهجرة فمعنى ذلك أن هذه الوثيقة العلمية قد دونت قبل هذه السنة، أى فى منتصف القرن الهجرى الأول، وقد ثبت لنا أن عبد الله بن عمرو دون فى عهد الرسول صحيفته الصادقة، وها نحن أولاء يثبت لنا تدوين صحيفة همام فى منتصف القرن الهجرى الأول، مما يدل على أن العلماء كانوا قد باشروا التدوين فعلاً قبل أمر عمر ابن عبد العزيز رحمه الله وكان من الأولى أن نذكر هذه الصحيفة بين كتب أبى هريرة، لأنها إملأؤه لهمام، إلا أننا فضلنا الكلام عنها هنا لاشتهارها باسمه، وقد رواها عنه تلميذه معمر بن راشد ثم عبد الرزاق عن معمر ثم هلم جراً<sup>(٢)</sup>.

وتضم صحيفة همام هذه (١٣٨) حديثاً وقد ذكر ابن حجر أن هماماً سمع من أبى هريرة نحو أربعين ومائة حديث بإسناد واحد<sup>(٣)</sup>، وهذا يزيدنا ثقة بهذه الصحيفة، لاتفاق عدد ما جاء فيها من الأحاديث وما ذكره العلماء.

\* \* \*

وشاع التدوين فى النصف الأول من القرن الهجرى الثانى بين العلماء، حتى أصبح من النادر ألا يرى لأحدهم تصنيفاً أو جامعاً فيه أبواب فى الحديث. وقد سبق أن ذكرت أول من صنف فى مختلف البلاد الإسلامية.

ومما شارك فى التصنيف أوجد عنده كتب فى تلك الحقبة يحيى بن أبى كثير (-١٢٩هـ)<sup>(٤)</sup>، معاصر الإمام الزهرى. وكان عند محمد بن سوقة (-١٣٥هـ)<sup>(٥)</sup>

(١) علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحى الصالح ص ٢٢.

(٢) انظر: صحيفة همام بن منبه ص ٢٠. (٣) تهذيب التهذيب ٦٧ ج ١١.

(٤) انظر: معرفة علوم الحديث ص ١١٠ والمحدث القاصل ص ٩٤ وفى رواية أنه توفى سنة (١٣٢هـ) فى الإمامة انظر: ص ١٥٦ منه.

(٥) انظر: مقدمة الجرح والتعديل ص ٧٥ وتهذيب التهذيب ص ٢١٠ ج ٩ ويفهم من المرجع الأول أن لمنصور ابن المعتمر كتاباً أيضاً.

كتاب، وكان عند زيد بن أسلم (١٣٦هـ) كتاب في التفسير<sup>(١)</sup> لعل فيه كثيراً من حديث رسول الله ﷺ. وكان عند موسى بن عقبة (-١٤١هـ)<sup>(٢)</sup> أحاديث لنافع مولى ابن عمر مكتوبة في صحيفة. وكان للأشعث بن عبد الملك الحمراني (-١٤٢هـ)<sup>(٣)</sup> كتاب انتقل إلى سليمان صاحب البصرى. وقد كتب عقيل بن خالد ابن عقيل (-١٤٢هـ)<sup>(٤)</sup> حديثاً كثيراً عن الزهرى، وكان أعلم الناس بحديثه. وكان ليحيى بن سعيد الأنصارى (-١٤٣هـ)<sup>(٥)</sup> كتاب انتقل إلى حماد بن زيد.

وكتب عوف بن أبى جميلة العبدى (-١٤٦هـ)<sup>(٦)</sup> أطراف الحديث عن الحسن البصرى عن النبي ﷺ، وكانت هذه الأطراف بعد ذلك عند يحيى بن سعيد القطان (١٢٠ - ١٩٨هـ)<sup>(٧)</sup>. وكان عند جعفر الصادق بن محمد الباقر (-٨٠ - ١٤٨هـ)<sup>(٨)</sup> رسائل وأحاديث ونسخ، وكان من ثقات المحدثين، وكان ليونس ابن يزيد بن أبى النجاد (-١٥٢هـ) كتاب شهد له ابن المبارك بالصحة<sup>(٩)</sup>، وكان لعبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة المسعودى (-١٦٠هـ) كتب أتى بها شعبة من بغداد<sup>(١٠)</sup>، وكان لزائده بن قدامة (-١٦١هـ) كتب عرضها على سفیان الثورى<sup>(١١)</sup>، وقد كان زائدة نظيراً لشعبة بن الحجاج<sup>(١٢)</sup> وكان لسفيان الثورى (-٩٧ - ١٦١هـ) كتب كثيره منها فى الحديث (الجامع الكبير) و (الجامع الصغير<sup>(١٣)</sup>). وقال ابن المبارك: إبراهيم بن طهمان (-١٦٣هـ) والسكرى يعنى أبا حمزة (-١٦٧هـ) صحيحا الكتب<sup>(١٤)</sup>.

- (١) انظر: تذكرة الحفاظ ص ١٢٤ ج١ وتهذيب التهذيب ص ٣٩٥ ج٣.  
(٢) انظر: الكفاية ص ٢٦٦.  
(٣) انظر: المحدث الفاضل ص ١٣٦: ب.  
(٤) انظر: تذكرة الحفاظ ص ١٥٢ ج١.  
(٥) انظر: مقدمة الجرح والتعديل ص ١٧٨.  
(٦) انظر: تهذيب التهذيب ص ١٦٧ ج٨.  
(٧) انظر: تهذيب التهذيب ص ١٠٤ ج٢.  
(٨) انظر: تهذيب التهذيب ص ٤٥٠ ج١١، وتقديم الجرح والتعديل ص ٢٧٢. وكان يونس يكتب عن الزهرى. انظر: مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٠٥.  
(٩) انظر: مقدمة الجرح والتعديل ص ١٤٥.  
(١٠) انظر: المرجع السابق ص ٨٠.  
(١١) انظر: مقدمة الجرح والتعديل ص ١٤٥.  
(١٢) انظر: تذكرة الحفاظ ص ٢٠٠ ج١.  
(١٣) انظر: الفهرست لابن النديم ص ٣١٥.  
(١٤) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٠.

وكان لشعبة بن الحجاج (- ١٦٠هـ) كتاب الغرائب في الحديث<sup>(١)</sup>، وكان لعبد العزيز بن عبد الله الماجشون (- ١٦٤هـ) كتب مصنفه رواها عنه ابن وهب<sup>(٢)</sup>، وكان لعبد الله بن عبد الله بن أويس (- ١٦٩هـ) ابن عم مالك وصهره على أخته - كتب انتهت إلى ابنه إسماعيل<sup>(٣)</sup>. وأوصى سليمان بن بلال (- ١٧٢هـ) بكتبه إلى عبد العزيز بن أبي حازم<sup>(٤)</sup>، ومن الجدير بالذكر أنه كان لعلي بن لهيعة (- ١٧٤هـ) محدث الديار المصرية كتب كثيرة، احترقت سنة (١٦٩هـ) وكانت كتبه صحيحة<sup>(٥)</sup>، ولابن لهيعة صحيفة في الحديث تعتبر من أقدم مجموعات الحديث، وهي موجودة ضمن مجموعة أوراق البردي (بهيديلبرج)<sup>(٦)</sup>، وكان لليث بن سعد (٩٤- ١٧٥هـ) شيخ الديار المصرية وعالمها تصانيف كثيرة<sup>(٧)</sup>.

ولدينا كثير من أخبار المصنفات والمصنفين إلا أن المقام يضيق بذكرها، ويكفي دليلاً على كثرة هذه المصنفات في نهاية القرآن الثاني، أن على بن عبد الله المدني (١٦١- ٢٣٤هـ) صنف في مختلف أبواب الحديث ورجاله وغريبه وشاذه وعلله نيفا ومائة مصنف، ذكر منها محمد بن صالح الهاشمي نيفا وخمسة وعشرين مصنفًا، وكل كتاب في عدة أجزاء بلغ بعضها ثلاثين جزءًا<sup>(٨)</sup>.

(١) انظر: الرسالة المستطرفة ص ٨٥.

(٢) انظر: تهذيب التهذيب ص ٣٤٤ ج١ قال ابن وهب: (حججت سنة ١٤٨هـ) وصانح يصيح لا يفتح الباب - إلى الخليفة - إلا للملك وعبد العزيز بن أبي سلمة) وكان صاحب سنة، وقد كتب عنه أهل بغداد. نفس المرجع.

(٣) انظر: تهذيب التهذيب ص ٢٨٠ ج٥.

(٤) انظر: الإصابة ص ١٩٩ ج٧.

(٥) انظر: تذكرة الحفاظ ص ٢٤٧ ج١.

(٦) انظر: تذكرة الحفاظ ص ٢٢٠ ج١، قال الإمام أحمد: ما كان محدث مصر إلا ابن لهيعة. ويعود عدم احتجاج البخاري ومسلم به إلا في المتابعات لاحتراق كتبه. انظر: تذكرة الحفاظ ص ٢٢٠ ج١.

(٧) نظرة: عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص ١١٨.

(٨) انظر: تذكرة الحفاظ ص ٢٠٩ ج١.

(٩) انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٩٤، وليس في هذا مبالغة، لأن بعض الأجزاء لا تتجاوز وريقات. كما لا يستبعد هذا بالنسبة لابن المدني إمام عصره الذي كان يجعله الإمام أحمد ويحترمه لسمو مكانته وسعة علمه. انظر: مقدمة الجرح والتعديل ص ٣١٩.

هكذا ساهم علماء المسلمين في حفظ الحديث في صدورهم وفي كتبهم،  
 وصدق علي بن المديني حين قال: نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة، فأهل المدينة  
 ابن شهاب (-١٢٤هـ)، ولأهل مكة عمرو بن دينار (٤٦-١٢٦هـ)<sup>(١)</sup>، ولأهل  
 البصرة قتادة بن دعامة السدوسي (-١٧١هـ)، ويحيى بن أبي كثير (-١٢٩هـ)<sup>(٢)</sup>،  
 ولأهل الكوفة أبو إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي (٢٣ - ١٢٧هـ)<sup>(٣)</sup>،  
 وسليمان ابن مهران الأعمش (٦١ - ١٤٨هـ). قال علي: ثم صار علم هؤلاء  
 الستة إلى أصحاب الأَصْناف<sup>(٤)</sup>.

\*\*\*\*

- 
- (١) كان محدثاً فقيهاً قال فيه شعبة: ما رأيت أثبت في الحديث منه. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ص ١١٤  
 ج٥ وتهذيب التهذيب ص ٣٠ ج٨.
- (٢) ذكر الراهب الرامهرمزي وفاته في اليمامة سنة (١٣٢هـ). وما أثبت عن تذكرة الحفاظ ص ١٢١ ج١، وتهذيب  
 التهذيب ص ٢٦٨ ج١١.
- (٣) وهو من أعلام التابعين الثقات كان إمام الكوفة وشيخها في عصره أدرك علياً رضي الله عنه، ويروى  
 أنه سمع من (٣٨) صحابياً، انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ص ١٦٦ ج٥، وتهذيب التهذيب  
 ص ٦٣ ج٨.
- (٤) انظر: المحدث الفاضل ص ١٥٦: أ- ب وتقدمة الجرح والتعديل ص ٣٤، ١٢٩.

## الفصل الثالث

### آراء فى التدوين..

١- رأى الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ):

قال الإمام محمد رشيد رضا: (لعل أول من كتب الحديث وغيره من التابعين فى القرن الأول، وجعل ما كتبه مصنفاً مجموعاً هو خالد بن معدان الحمصى، روى عنه أنه لقي سبعين صحابياً قال فى تذكرة الحفاظ وقال بحير: ما رأيت أحداً ألزم للعلم منه، وكان علمه فى مصحف له أزرار وعرا) ثم قال: فخالد بن معدان جمع علمه فى مصنف واحد جعل له وقاية لها أزرار وعرا تمسكها لثلا يقع شيء من تلك الصحف، وكان ذلك فى القرن الأول، فإنه مات سنة ١٠٣هـ أو سنة ١٠٤هـ، ولكن المشهور أن أول من كتب الحديث ابن شهاب الزهرى القرشى، ولعل سبب ذلك أخذ أمراء بنى أمية عنه<sup>(١)</sup>).

بعد أن رأينا موقف العلماء من الكتابة خلال القرن الأول الهجرى وفى النصف الأول من القرن الثانى، وبعد أن وجدنا أدلة علمية قاطعة تثبت وقوع التدوين فى عهد رسول الله ﷺ وفى عصر الصحابة والتابعين - بعد هذا لا يمكننا أن نقبل رأى الأستاذ الإمام، وذلك من ناحيتين:

الأولى: إذا اعتبرنا التدوين الشخصى الخاص بكل عالم - فإن كثيرين من الصحابة والتابعين سبقوا خالداً فى هذا المضمار، وحافظوا على ما كتبوه، فابن عمرو حفظ صحفه فى صندوق له حلق، وغيره فى كراريس ودفاتر، كهمام ابن منبه وابن شهاب، فمجرد وجود علم خالد بن معدان فى مصحف له أزرار لا يكفى لأن يكون أول من دوّن الحديث فى عصره.

والناحية الثانية: إذا اعتبرنا التدوين الرسمى للحديث استجابة لرغبة عمر ابن عبد العزيز فقد سبق خالداً إلى التدوين أبو بكر بن حزم وابن شهاب الزهرى،

(١) مجلة المنار ص ٧٥٤ ج ١٠.

وقد ثبت أن ابن شهاب كتب لعمر الحديث في دفاتر وزعت على كل أرض له عليها سلطان، فخالد لم يكن أول من صنف، سواء أكان هذا التصنيف خاصاً أم رسمياً. فهناك من سبقه في جمع الحديث، ويمكننا أن نعتبر صحف خالد من أولى الصحف التي ضمت علمه في ذلك القرن.

وإذا كان المشهور أن ابن شهاب الزهري أول من كتب الحديث - فإن هذا محمول على تنفيذه أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز، لا لأن أمراء بني أمية أخذوا عنه، لأن أخذ الأمراء عنه لا يؤثر في الأدلة الأخرى التي تثبت استجابته لأمر الخليفة وتدوينه الحديث في دفاتر. وقد أسلفنا أنه كان قد كتب كثيراً من حديث رسول الله ﷺ، في أثناء طلبه العلم. وهذا يدل على أسبقية ابن شهاب على غيره في التدوين ومع هذا فهناك من دون قبله - بشكل غير رسمي - وحفظ علمه في صحف واعتنى بصحفه وحرص عليها من الضياع. فقد ثبت لدينا مما سبق أن كثيراً قبل ابن شهاب وقبل خالد بن معدان كتبوا الحديث وحفظوه في كل ما تيسر لديهم من وسائل، رغبة منهم في حفظ حديث رسول الله ﷺ من الضياع أو التحريف.

## ٢ - رأى الشيعة في تدوين الحديث:

أ- قال المرجع الديني الأكبر السيد حسن الصدر (١٢٧٢ - ١٣٥٤هـ):

(وقد وهم الحافظ الجلال السيوطي في كتابه تدريب الراوي، حيث زعم أن ابتداء تدوين الحديث وقع في رأس المائة. قال: وأما ابتداء تدوين الحديث فإنه وقع في رأس المائة في خلافة عمر بن عبد العزيز بأمره، ففي صحيح البخاري في أبواب العلم: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم... قال في فتح الباري، يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوي، ثم أفاد أن أول من دونه بأمر عمر بن عبد العزيز ابن شهاب انتهى ما في تدريب الراوي. قلت «السيد حسن الصدر»: كانت خلافة عمر بن عبد العزيز سنتين وخمسة أشهر مبدؤها عاشر صفر سنة ثمان أو تسع وتسعين ومات سنة إحدى ومائة لخمس أو لست مضين وقيل لعشر بقين من رجب، ولم يؤرخ زمان أمره ولا نقل ناقل امثال أمره بتدوين

الحديث في زمانه، والذي ذكره الحافظ ابن حجر من باب الحدس والاعتبار، لا عن نقل العمل بأمره بالعيان، ولو كان له عند أهل العلم بالحديث أثر بالعيان لما نصوا أن الأفراد لحديث رسول الله ﷺ كان على رأس المائتين، كما اعترف به شيخ الإسلام وغيره... قال «ابن حجر»: إلى أن رأى بعض الأئمة أن تفرد أحاديث النبي ﷺ خاصة، وذلك في رأس المائتين وعدد جماعة... وكذلك الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ نص أن أول زمن التصنيف وتدوين السنن وتأليف الفروع - بعد انقراض دولة بنى أمية وتحول الدولة إلى بنى العباس... ولا يقاس بالذهبي غيره في الخبرة بالتواريخ في أمثال هذه الأمور، فلم يذكر ما ذكره السيوطي، بل كل من كتب في الأوائل من علماء السنة لم يذكره. اللهم إلا أن يقال باستبعاد عدم الأخذ بقول مثل عمر بن عبد العزيز فلعله جمع بعده فلا يكون الحكم بجمعه في رأس المائة من القول السديد المحقق، عصمنا الله تعالى من التسرع في القول<sup>(١)</sup>.

أقول إن ما ذكره السيوطي ليس وهما بل حقيقة علمية، كما تبين لنا من البحث.

وأما قصر مدة خلافة عمر بن عبد العزيز، وعدم تأريخ زمن أمره فإنه لا ينافي استجابة العلماء لأمر الخليفة. وأما أنه لم ينقل هذا ناقل فهذا حكم يناقض الدليل، فقد كثر الناقلون، ونص ابن عبد البر على أن ابن شهاب امتثل لأمر الخليفة وكتب الحديث في دفاتره، وبعث الخليفة إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً<sup>(٢)</sup>، ولم يكن ما ذكره ابن حجر من باب الحدس والتخمين، ثم إن ما ذكره علماء الحديث من أن أفراد تدوين حديث رسول الله ﷺ كان على رأس المائتين - لا ينافي قط تدوينه استجابة لأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز، ونحن لا نشك في أن بعض المدونات الأولى، في عصر رسول الله ﷺ وفي عصر الصحابة كانت خالية من فتاوى الصحابة، وأقوى دليل على هذا الصحيفة الصادقة، والصحيفة

(١) تأسيس علوم الشيعة ص ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٧٦ ج ١.

الصحيحة، وإن كان بعض المصنفين قد كتب عمل الصحابة، وفتاواهم إلى جانب الحديث، فهذا لا ينافي كونهم دونوا الحديث على رأس المائة الأولى وقبلها.

واستشهاده بما ذكره الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ لا يجدى نفعاً، لأن الحافظ الذهبي لخص الحالة في القرن الأول، ولم يدرس التدوين دراسة موضوعية تفصيلية، ومع هذا نراه يذكر في تراجم من صنف من العلماء أنهم أول من صنفوا في بلادهم. وليس من المفروض على الذهبي أن يفصل في التدوين لأن تذكرته في رجال الحديث، لا في علم الحديث ومصطلحه.

وأما أن أحداً من الأوائل الذين كتبوا في الحديث وعلومه - لم يذكر ما ذكره الجلال السيوطي، فهذا مردود بما كشف عنه بحثنا، فقد ذكر ذلك الرامهرمزي، وبين سبب كراهة من كره الكتابة في الصدر الأول، وجمع بين أحاديث السماح بالكتابة والنهي عنها. وإذا كان الرامهرمزي لم ينقل إلينا النص كالسيوطي حرفياً فقد ذكر ما يفهم منه أن بعض العلماء كانوا قد دونوا في القرن الأول،<sup>(١)</sup> كما بين اهتمام عمر بن عبد العزيز بنشر السنة والمحافظة عليها<sup>(٢)</sup>، ووضع الخطيب البغدادي كتابه (تقييد العلم) لعرض سير التدوين في العصر الأول، وبين كثيراً مما خفى على الناس، وأثبت أن بعض طلاب العلم وأهله قد مارسوا التدوين في عهد رسول الله ﷺ وبعده.

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام (١٥٧ - ٢٢٤هـ) بسنده عن محمد ابن عبد الرحمن الأنصاري، قال: (لما استخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى المدينة يلتمس كتاب رسول الله ﷺ في الصدقات وكتاب عمر بن الخطاب... فنسخا له<sup>(٣)</sup>)، فما أظن بعد هذا أن يدعى إنسان أن أمر عمر بن عبد العزيز لم ينفذ أو لم يؤخذ به، فما ذهب إليه علماء الحديث من أن ابتداء تدوين الحديث وقع في رأس المائة الأولى ليس من باب الخدس والتسرع بالقول. ويحمل قولهم هذا

(١) انظر: المحدث الفاضل ص ٧١: ٧١ - أ: ٧١: ب.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ١٥٣: أ.

(٣) الأموال ص ٣٥٨، ٣٥٩.

على التدوين الرسمي الذى تبنته الدولة، أما التدوين الشخصى والفردى فكان منذ عهد رسول الله ﷺ.

بعدما ذكره السيد حسن الصدر قال: (إذا عرفت هذا فاعلم أن الشيعة أول من تقدم فى جمع الآثار والأخبار، فى عصر خلفاء النبى المختار عليه وعليهم الصلاة والسلام، اقتدوا بإمامهم أمير المؤمنين عليه السلام). ثم ذكر كتاباً لعلى رضى الله عنه كان عظيمًا مدرجًا، وذكر صحيفته المعلقة بسيفه، ثم ذكر كتاباً لأبى رافع مولى رسول الله ﷺ سماه «كتاب السنن والأحكام والقضايا» وقد توفى أبو رافع فى أول خلافة على رضى الله عنه، قال السيد حسن الصدر: (وأول خلافة على أمير المؤمنين سنة خمس وثلاثين من الهجرة، فلا أقدم من أبى رافع فى التأليف بالضرورة<sup>(١)</sup>).

أقول: إذا صح هذا الخبر فإن أبا رافع يكون ممن دون فى عصر الصحابة، وقد سبقه عبد الله بن عمرو الذى كتب فى عهده ﷺ. وإذا صح هذا الخبر وكان كتابه مرتباً على الأبواب: (الصلاة والصيام والحج والزكاة والقضايا) كما ذكر السيد حسن الصدر، كان لأبى رافع شرف الأولوية فى التأليف لا فى التدوين، وصحة هذا لا تحملنا على أن ننفى ما ثبت تاريخياً من أخبار التدوين فى عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز.

ب - مادنا فى موضوع الشيعة والتدوين، فلا بد من أن نتناول بالبحث أصلاً من أصول الزيدية، يعود تدوينه إلى مطلع القرن الثانى، وهذا الأصل هو «مجموع

---

(١) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ص ٢٧٩، ٢٨٠. وقد نقل عن الشيخ أبى العباس النجاشى ما ذكره عن أبى رافع. ثم قال السيد حسن الصدر: وأول من صنف فى الآثار مولانا أبو عبد الله سلمان الفارسى (ر)... وأول من صنف الحديث والآثار بعد المؤسسين أبو ذر الغفارى صاحب رسول الله ﷺ وله كتاب الخطبة يشرح فيها الأمور بعد النبى ﷺ ذكره الشيخ أبو جعفر الطوسى فى الفهرست. ثم يذكر كتاباً لعبيد الله بن أبى رافع فى قضايا أمير المؤمنين وكتاب تسمية من شهد مع أمير المؤمنين الجمل وصفين والنهروان من الصحابة، ثم ذكر بعض أخبار كتب لأشخاص طعن فيهم أهل السنة كالحارث بن عبد الله الأعور الهمدانى، أو أخبار كتب لم تثبت عند أهل السنة. انظر: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ص ٢٨٢ وما بعدها.

الإمام زيد» وتتناول هذا الكتاب في ثلاث نقاط، وهى التعريف بصاحب المجموع،  
والتعريف براويه، ثم المجموع ذاته.

١ - الإمام زيد: هو زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على  
ابن أبى طالب رضى الله عنهم جميعاً. ولد الإمام زيد حوالى سنة (٨٠هـ)،  
ونشأ فى أسرة معروفة بالعلم والجهاد، فقد تلقى العلم على أبيه ثم أخذ عن  
أخيه محمد الباقر الذى شهد له العلماء بالمنزلة العلمية الرفيعة، كما سمع من  
كبار التابعين فى المدينة وكان ينتقل بين الحجاز والعراق، ونصح الإمام زيد حتى  
شهد أهل العلم بفضل علمه، سئل جعفر الصادق عن عمه زيد، فقال: كان  
والله أقرأنا لكتاب الله، وأفقهنا فى دين الله، وأوصلنا للرحم، والله ما تركنا فىنا  
لدينا ولا لآخرة مثله. وقال الشعبى: ما ولدت النساء أفضل من زيد بن على  
ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد، وسئل الباقر عن أخيه زيد، فقال: إن زيدا أعطى  
من العلم بسطة<sup>(١)</sup>.

ولزيد مع هشام بن عبد الملك وولاته أخبار كثيرة تذكر إخراجهم له واضطراره  
إلى الخروج على الخليفة، ومن هذا ما ذكره ابن العماد الحنبلى أنه دخل يوماً على  
هشام بن عبد الملك، فقال له: (أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة وأنت ابن  
أمة! فأجابه بقوله: إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات، وقد كانت أم  
إسماعيل أمة لأم إسحاق، صلى الله عليهما، فلم يمنعه ذلك من أن ابتعثه الله  
نبياً، وجعله للعرب أباً، وأخرج من صلبه خير البشر محمداً ﷺ! أفقول لى كذا  
وأنا ابن فاطمة وابن على<sup>(٢)</sup>؟! وقام ينشد شعراً وخرج فى الكوفة وبسايعه من  
أهلها خمسة عشر ألف رجل، ثم تفرقوا عنه ليلة خرج سوى ثلاثمائة رجل، ولما  
قتل أرسل برأسه إلى الشام ثم إلى المدينة، وكان ذلك سنة (١٢٢هـ)<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: مقدمة مسند زيد وترجمته ص ٢ وما بعدها.

(٢) شذرات الذهب ص ١٥٧ ج١، وانظر: الإمام زيد لأبى زهرة ص ٤٢-٦٦.

(٣) انظر: شذرات الذهب ص ١٥٧ ج٢، والإمام زيد ص ٤٢-٦٦.

وللإمام زيد المسند المسمى المجموع الفقهي . وله المجموع الحديثي ، وقد جمعهما<sup>(١)</sup> عمرو بن خالد الواسطي . وله أيضاً تفسير الغريب من القرآن ، وتثبيت الإمامة ومنسك الحج<sup>(٢)</sup> .

٢- أما راوي المجموع ، فهو أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي الهاشمي بالولاء الكوفي ، روى مجموعي الإمام زيد الحديثي والفقهي ، قال : صحبت الإمام زيدا فما أخذت عنه الحديث إلا وقد سمعته مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً أو أكثر من ذلك ، وما رأيت هاشمياً مثل زيد بن علي ، فلذلك اخترت صحبتته على جميع الناس<sup>(٣)</sup> . وتوفي بعد العشر الخامسة من المائة الثانية من الهجرة .

وقد اختلف في أبي خالد ، فقبل الزيدية روايته ، وفي هذا يقول القاسم ابن عبد العزيز : (وعمر بن خالد الواسطي أبو خالد ، حدث عنه الثقات ، وهو كثير الملازمة لزيد بن علي عليه السلام ، وهو الذي أخذ عنه أكثر الزيدية مذهب زيد بن علي عليهما السلام ، ورجحوا روايته على رواية غيره<sup>(٤)</sup>) .

وجرحه الإمامية<sup>(٥)</sup> وغيرهم . وقد فند شارح المجموع طعون الجارحين لعمر بن زيد وبين أقوال العلماء فيه ، وانتهى إلى أن كل ما وجه إليه لا يؤثر في عدالته<sup>(٦)</sup> ، وكذلك فند فضيلة الأستاذ محمد أبو زهرة الطعون وناقشها ووازن آراء العلماء ، وانتهى إلى أن أوجه قبول رواية أبي خالد أرجح من أوجه الطعن<sup>(٧)</sup> .

٣- المجموع : واختلف في المجموع ذاته : هل وضعه الإمام زيد ورتبه كما هو عليه الآن وأملاه على طلابه أم أن هذا عمل أبي خالد؟ فأبو خالد نفسه يجيب

(١) انظر : الإمام زيد لأبي زهرة ص ٢٣٢ .

(٢) انظر : مقدمة مسند زيد (المجموع) صفحة ٤ ، ٥ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٢٦ والروض النضير ٢٨ ج١ .

(٤) الروض النضير ص ٢٨ ج١ .

(٥) الإمام زيد لأبي زهرة ص ٢٣٣ .

(٦) انظر : الروض النضير ص ٢٥-٤٧ ج١ وشارح المجموع العلامة شرف الدين بن الخيمي اليمنى ، وكان عرضه لذلك قيماً تجدر مراجعته .

(٧) انظر : الإمام زيد لأبي زهرة ص ٢٣٥-٢٥٨ .

إبراهيم بن الزبيرقان الذى سأله: كيف سمعت هذا الكتاب عن زيد بن على؟ فيقول: (سمعت منه فى كتاب معه قد وطأه وجمعه، فما بقى من أصحاب زيد ابن على ممن سمعه معى إلا قتل غيرى<sup>(١)</sup>) إلا أن الإمام محمد بن المطهر فى أول شرحه المنهاج على المجموع يقول: (وكان مذهبه - يعنى زيد بن على - عزيزاً، لقلة ضبطه فى الكتاب الجامع إلا ما عنى بجمعه أبو خالد، فإنه جمع مجموعين لطيفين، أحدهما فى الأخبار، والآخر فى الفقه<sup>(٢)</sup>) ويمكن الجمع بين الخبرين بأن أبا خالد قد كتب عن الإمام زيد الحديث والفقه وسمع منه، فرتب ذلك فى مجموعين. ولا نرى هذا بعيداً قط، لأن أبا خالد صحب زيداً بالمدينة قبل قدومه الكوفة خمس سنين، كان يقيم عنده فى كل سنة أشهراً كلما حج<sup>(٣)</sup>، وكان عصر الإمام زيد عصر طلائع التصنيف، ومع هذا لا يمكننا أن نقطع بأن المجموع كما هو عليه الآن جمعاً وترتيباً من تصنيف الإمام زيد، لأن المدارس لم تكن المجموع يرى كثير من الحديث يرويه أبو خالد قائللاً (حدثنى زيد بن على)، وفى الفقه يقول: قال زيد بن على، مما يدل على أن أبا خالد تلقى هذا مشافهة عن الإمام زيد. وهذا لا يمنع أن يحمل الإمام بعض علمه فى كتاب سواء أسمى على طلابه أم لم يمل، يرجح عندى أن أبا خالد كتب عن الإمام الحديث والفقه، ثم رتب ذلك فى مجموعين وكل هذا لا يؤثر فى صحة نسبة المجموع إلى زيد بن على.

وعلى هذا يكون المجموع من أهم الوثائق التاريخية التى تثبت ابتداء التصنيف والتأليف فى أوائل القرن الثانى الهجرى. بعد أن استتجنا هذا من خلال عرضنا لمصنفات ومجاميع العلماء من غير أن نرى نموذجاً مادياً يمثل أولى تلك المصنفات. اللهم إلا موطأ الإمام مالك الذى انتهى من تأليفه قبل منتصف القرن الهجرى الثانى، فيكون المجموع قد صنف قبله بنحو ثلاثين سنة.

من الواضح أن المجموع المطبوع جمع بين الفقه والحديث، فهو يضم المجموعين الفقهي والحديثي ولكنهما ليسا منفصلين، فنرى أبا خالد يروى فى الباب الواحد

(٢) المرجع السابق ص ١٣٢.

(١) الروض النضير ص ٢٨ ج ١.

(٣) انظر: الروض النضير ص ٢٨ ج ١.

أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ، وأثراً عن علي رضي الله عنه، وفقه الإمام زيد رحمه الله .

وقد ضم المجموع (٢٢٨) حديثاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ، ومن الأخبار العلوية (٣٢٠) خبراً، وعن الحسين خبيرين فقط<sup>(١)</sup>.

وقد رتب المجموع ترتيباً فقهياً، ففيه كتاب الطهارة، وكتاب الصلاة، وكتاب الجنائز، وكتاب الزكاة، وكتاب الصيام، وكتاب الحج، وكتاب البيوع... ورتب كل كتاب على أبواب مختلفة، ويفتح كل باب بحديث الباب بسنده المرفوع إلى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أو الموقوف على الإمام علي رضي الله عنه. وسأعرض بعض النماذج لنقف على حقيقة المجموع.

أ- من باب ما ينبغي أن يجتنب في الصلاة:

قال: (حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: أبصر رسول الله ﷺ رجلاً يعث بلحيته في الصلاة فقال: «أما هذا فلو خشع قلبه لخشعت جوارحه»، وقال زيد بن علي عليه السلام: إذا دخلت في الصلاة فلا تلتفت يميناً ولا شمالاً، ولا تعث بالخصي، ولا ترفع أصابعك ولا تنقض أناملك، ولا تمسح جبهتك حتى تفرغ من الصلاة<sup>(٢)</sup>).

ب - من كتاب البيوع، باب الكسب من اليد:

قال: (حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أي الكسب أفضل؟ فقال ﷺ: «عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور، فإن الله يحب المؤمن المحترف، ومن كدّ على عياله كان كالمجاهد في سبيل الله عز وجل».

(١) انظر: مقدمة مسند زيد ص ٩.

(٢) مسند الإمام زيد ص ٣٦، ٣٧.

حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام، قال: من طلب الدنيا حلالاً تعطفاً على والد أو ولد أو زوجة، بعثه الله تعالى ووجهه على صورة القمر ليلة البدر<sup>(١)</sup>.

### ٣- رأى في التدوين الرسمي:

لقد تبين لي أثناء البحث في موضوع تدوين السنة، وخاصة في دراسة رجال الحديث في عصر الصحابة والتابعين - أن أمير مصر عبد العزيز بن مروان ابن الحكم الأموي (-٨٥هـ). قد حاول جمع حديث رسول الله ﷺ، وقد روى هذا إمام الديار المصرية ومحدثها الليث بن سعد، فقال: (حدثني يزيد بن أبي حبيب أن عبد العزيز بن مروان كتب إلي كثير بن مرة الحضرمي - وكان قد أدرك بحمص سبعين بدرياً من أصحاب رسول الله ﷺ - قال ليث: وكان يسمى الجند المقدم، قال: فكتب إليه أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله ﷺ، من أحاديثهم إلا حديث أبي هريرة فإنه عندنا<sup>(٢)</sup>)، لم يطلب حديث أبي هريرة لأنه كان عنده وكان قد سمعه عبد العزيز بن مروان من أبي هريرة<sup>(٣)</sup>. لقد طلب أمير مصر كتابة حديث رسول الله ﷺ من إمام حمص وعالمها الذي كان طلاباً للعلم حافظاً ثقة<sup>(٤)</sup>. وقد كان هذا الطلب أثناء إمارته على مصر بين سنة (٦٥ - ٨٥) هجرية، ويمكننا أن نجد هذا بحد أقرب إلى الحقيقة إذا عرفنا أن كثير بن مرة توفي بين سنة (٧٠ و ٨٠)<sup>(٥)</sup> للهجرة، فلو فرضنا أنه توفي سنة (٧٥هـ) فمعنى هذا أن طلب الأمير كان قبل هذه السنة، والراجح عندي أن طلب الأمير عبد العزيز، كان في السنين الأولى من إمارته، لما عرف عنه من حب للعلم وأهله، وتفان في خدمة الدين<sup>(٦)</sup>.

(١) مسند الإمام زيد ص ١٠٣.

(٢) طبقات ابن سعد ص ١٥٧ قسم ٢ ج٧ وتهذيب التهذيب ص ٤٢٩ ج ٨ وانظر: سير أعلام النبلاء مخطوط ص ١٤٥ قسم ٢ ج ٤.

(٣) انظر: تهذيب التهذيب ص ٣٥٦ ج ٦.

(٤) انظر: تهذيب التهذيب ص ٤٢٩ ج ٨.

(٥) انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ص ١٧١، ١٧٤ ج ١، وولاة مصر للكندي ص ٤٩.

إلا أن المصادر لم تخبرنا عن امثال كثير بن مرة للأمير. فنقف أمام هذا الخبر التاريخي متسائلين: ترى هل كتب كثير للأمير ما طلب منه من حديث رسول الله ﷺ؟ وإذا كتب إليه فما مقدار ما كتبه؟ وعن أي الصحابة كتب إليه؟ ثم إلى من آلت تلك الصحف أو الدفاتر المدونة؟ كل هذه أسئلة تعرض أمامنا، وتحتاج إلى بحث وتنقيب، وريثما يكشف لنا التاريخ عن خبايا تراثنا الإسلامي العظيم. نجيب عن هذه الأسئلة على ضوء ما لدينا من أخبار قليلة.

إن ما نعرفه من عناية هؤلاء بالحديث يرجح عندنا أن يستجيب كثير بن مرة لطلب الأمير، ولو ظن الأمير عبد العزيز امتناع عالم حمص عن إجابته ما كتب إليه، مما يرجح عندي أن كثيراً تلقى رسالة الأمير وأجابه إلى طلبه، لما عرف عن كثير من نشاط علمي عظيم، ومن الصعب في هذا المجال أن نقدر مقدار ما كتب كثير، لأن المراجع لم تنص على شيء من هذا<sup>(١)</sup>، فأرجو من الله أن أوفق فيما بعد للكشف عن ذلك وإيضاحه بما يكفل لنا الحكم العلمي الصحيح.

ونقول الآن بعد هذا الخبر: إذا ثبتت استجابة كثير بن مرة لطلب أمير مصر. فيعنى هذا أن بعض الحديث النبوي قد دون رسمياً في منتصف العقد الهجري الثامن قبل انقضاء القرن الأول. وعلى أية حال، فإن اهتمام أمير مصر بحديث رسول الله ﷺ وتدوينه يزيدنا ثقة بأن التدوين قد سار جنباً إلى جنب مع الحفظ، ولم يتأخر قط إلى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فيكون شرف المساهمة في تدوين الحديث، قد كلل الوالد الأمير والابن الخليفة البار، ويكون لهما جميعاً شرف العمل لحفظ الحديث وتدوينه رسمياً.

وأنا بهذه النتيجة لا أريد أن أخالف ما اشتهر عند أئمة هذا العلم من أن تدوين الحديث النبوي كان على رأس المائة الأولى في خلافة عمر بن عبد العزيز، بل

---

(١) لأن التاريخ الأموي دون في عهد الدولة العباسية وقد اهتم المؤرخون بالحوادث الكبرى وبالخلفاء والخطوط العريضة من حياة الأمراء. وكانت كثير من مزايا الأمويين تلمس أو تصغر تمثيلاً مع سياسة العباسيين الذين لا يسرهم التحدث بمفاخر من قبلهم. انظر: أضواء على التاريخ الإسلامي ص ٨٥. ونحن لا نشك بوجود مؤرخين منصفين نرجو أن نجد عندهم فيما بعد ما يروى غليلنا في هذه النقطة.

أضع يدي على مفتاح بحث تاريخي له أهميته في تاريخ تدوين الحديث، سواء أخالف هذا المشهور أم وافقه، وهذا المفتاح قد طوى في بطون تراثنا الزاخر، ينتظر من يتفرغ ليكشف عنه، فنحن في هذا لسنا بدعا، ولا نأتى بشيء جديد سوى أننا ننفض غبار الماضي عن جواهرنا المكنونة، ونحاول أن نسلكها في عقد يصور لنا الحقيقة التاريخية.

#### ٤ - المستشرقون ورأيهم في تدوين الحديث:

لقد عرفنا أن المسلمين حفظوا حديث النبي ﷺ في صدورهم وصحفهم، فساهمت الذاكرة والأفلام والصحف والدفاتر في حفظ السنة المطهرة، وسار الحفظ في الصدور وفي الصحف جنباً إلى جنب في سبيل هذه الغاية، ورأينا مراحل التدوين الفردي والرسومي، وثبت لنا وقوع التدوين في عهد رسول الله ﷺ وفي عصر الصحابة والتابعين، بأدلة قاطعة لا يرقى إليها الشك، ولا يعترها الظن. وعرفنا أن ضرورة حفظ الحديث لم تنتظر خلافة عمر بن عبد العزيز وإذنه، بل دعت إلى تدوينه قبله بكثير، وكان لعمر بن عبد العزيز شرف مساهمة الدولة في تبنى هذا التدوين والإشراف عليه، وتحريك همم العلماء للجمع والتصنيف، الذي ظهرت بوادره في النصف الأول من القرن الثاني، ونضجت ثماره في المصنفات الكثيرة التي أخرجها أوائل المصنفين في مختلف بلاد الدولة الإسلامية آنذاك.

بعد هذا لن نؤخذ بما وصل إليه المستشرقون وأعلنوه من أن السنة قد دوت في عصر مبكر. ولن نقع فيما نصبه بعضهم من شرك خلف بحوثهم، وإن ظهرت بعض أبحاثهم في ثوب علمي نقي، فقد كتب جولد تسيهر فصلاً خاصاً حول كتابة الحديث في كتابه «دراسات إسلامية» أتى فيه بأدلة كثيرة على تدوين الحديث في أول القرن الهجري الثاني، وكان في الفصل الأول من كتابه (قد سرد طائفة من الأخبار، تشير إلى بعض الصحف التي دوت في عهد الرسول ﷺ، ولكنه حاطها بكثير من التشكك في أمرها، والريبة في صحتها، وقد رمى بهذا إلى غرضين، أحدهما: إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها في الصدور، لتعويل

الناس منذ القرن الهجرى الثانى على الكتابة، والآخر وصم السنة كلها بالاختلاق والوضع على السنة المدونين لها، الذين لم يجمعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم، ويعبر عن آرائهم ووجهات نظرهم فى الحياة . . .

وحاول المستشرق «سوفاجيه» فى كتابه «الحديث عند العرب» أن يفند المعتقد الخطأ عن وصول السنة بطريق المشافهة وحدها، وجمع أدلة كثيرة على تدوين الأحاديث والتعويل على هذا التدوين فى عصر مبكر يبدأ أيضاً فى مطلع القرن الهجرى الثانى، وليس فى حياة الرسول ﷺ، وغايته لا تختلف فى شىء عن غاية جولدم تسيهر<sup>(١)</sup>.

ويقول الدكتور صبحى الصالح: (وأما «دوزى» فلعله يخدع برأيه المعتدل كثيراً من علمائنا فضلاً عن أوساط المتعلمين فينا، فقد كان هذا المستشرق يعترف بصحة قسم كبير من السنة النبوية التى حفظت فى الصدور، ودونت، فى الكتب بدقة بالغة، وعناية لا نظير لها. «وما كان يعجب لكثير من الموضوعات والمكذوبات تتخلل كتب الحديث - فتلك كما يقول طبيعة الأشياء نفسها - بل للكثير من الروايات الصحيحة الموثوقة التى لا يرقى إليها الشك، (ونصف صحيح البخارى على الأقل جدير بهذا الوصف عند أشد المحدثين غلوا فى النقد)، مع أنها<sup>(٢)</sup> تشتمل على أمور كثيرة يود المؤمن الصادق لو لم ترد فيها<sup>(٣)</sup>. فلم يكن غرض هذا المستشرق خالصاً للعلم والبحث المجرد حين مال إلى الاعتراف بصحة ذلك النصيب الكبير من السنة، وإنما كان يفكر أولاً وآخرًا فيما اشتملت عليه هذه السنة الصحيحة من نظرات مستقلة فى الكون والحياة والإنسان، وهى نظرات لا يدرأ عنها استقلالها النقد والتجريح، لأنها لم تنبثق من العقل الغربى المعجز، ولم تصور حياة الغرب الطليقة من كل قيد<sup>(٤)</sup>!).

(١) انظر: هذا البحث فى علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحى الصالح ص ٢٣ - ٣٠ وما أشرنا إليه فى الصفحة ٢٤، ٢٥.

(٢) أى الروايات الصحيحة.

(٣) أشار الدكتور صبحى الصالح فى هامش الصفحة ٢٦ إلى أن عبارة دوزى فى الأصل أوقع من أن يوردها على حائنها وأحال على الأصل بالفرنسية.

(٤) علوم الحديث ومصطلحه ص ٢٦.

وعثر المستشرق (شبرنجر) على كتاب «تقييد العلم» للخطيب البغدادي فوجد فيه شواهد وأخباراً تدل على تدوين المسلمين للحديث في عصر مبكر، فكتب مقالاً حول ما وجدته.

واطلع (جولد تسيهر) على ما كتبه سلفه (شبرنجر) وأيد فكرة كتابة المسلمين للحديث في عصر مبكر، إلا أنه (تأمل في الأخبار التي عرضها سلفه «شبرنجر» نقلاً عن الخطيب البغدادي وغيره، فوجدتها تارة تقول بأن الرسول ﷺ أجاز كتابة العلم، وطوراً تدعى بأنه نهى عنها، وتذكر مرة أن الصحابة حضوا عليها، ثم لا تلبث أن تروى كراحتهم لها، وتعرض كتب بعض التابعين للعلم، ثم تذكر استنكاف بعضهم الآخر - رأى ذلك فظن بهذه الأخبار سوءاً، وأراد أن يرى خلالها يد الوضع والتزوير، فتصور حزين متناضلين، اتخذوا من هذه الأخبار سلاحاً، يذود كل منهما به عن رأيه، ويدفع خصمه، فقال: إن أهل الرأي - الذين اعتمدوا في وضع فروع الشريعة على عقلهم، وأهملوا شأن حديث رسول الله ﷺ - كان من حججهم أن الحديث لم يكتب دهنراً طويلاً، فغابت معالمه، وتشئت أمره، وأيدوا رأيهم بأخبار اختلقوها، ثبت أنه لم يكتب، ولم يقف خصومهم «أهل الحديث» واجمين، بل فعلوا فعلتهم واختلقوا الأخبار تأييداً لقولهم، فنسبوا إلى الرسول أحاديث في إباحة الكتابة<sup>(١)</sup>).

هكذا رأى جولد تسيهر أهل الرأي يدعون عدم كتابة الحديث، فيضعون من الأخبار ما يثبت دعواهم، وأهل الحديث يرون جواز تقييد العلم، فيضعون ما يثبت دعواهم، ليحتجوا بصحة ما لديهم من أحاديث في خلافاتهم الفقهية، أراد جولد تسيهر أن يصور علماء الأمة ومفكريها، حزين متعصبين لأرائهم، يستجيزون الكذب في سبيل ذلك!! فساء ما تصوره وبس ما انتهى إليه.

وقد قيض الله لكتاب «تقييد العلم» أن ينشر في دمشق، ويحقق تحقيقاً علمياً دقيقاً، على يدي أستاذنا الدكتور يوسف العشي، الذي درس أخباره دراسة عميقة،

(١) مجلة الثقافة المصرية العدد ٣٥١ السنة السابعة الصفحة ٢٢، ٢٣ - من مقالة أستاذنا الدكتور يوسف العشي «نشأة تدوين العلم في الإسلام».

ثم قدم للكتاب المذكور بتصدير علمي قيم، كشف فيه عن خطأ جولد تسيهر في رأيه (حين قال: إن من ادعى عدم جواز الكتابة هم أهل الرأي، وأن مخالفهم هم من أهل الحديث - «قال الدكتور العث» - : فالخلاف لم يكن بين هاتين الفئتين، لأن من أهل الرأي من امتنع عن الكتابة كعيسى بن يونس (-١٨٧هـ) وحماد ابن زيد (-١٧٩هـ) وعبد الله إدريس (-١٩٢هـ)، وسفيان الثوري (-١٦١هـ)، وبينهم من أقرها كحماد بن سلمة (-١٦٧هـ)، والليث بن سعد (-١٧٥هـ)، وزائدة بن قدامة (-١٦١هـ) ويحيى بن اليمان (-١٨٩هـ)، وغيرهم. ومن المحدثين من كره الكتابة كابن علي (-٢٠٠هـ) وهشيم بن بشير (-١٨٣هـ)، وعاصم بن ضمرة (-١٧٤هـ) وغيرهم، ومنهم من أجازها كبقية الكلاعي (-١٩٧هـ) وعكرمة بن عمار (-١٥٩هـ)، ومالك بن أنس (-١٧٩هـ) وغيرهم<sup>(١)</sup>.

بهذه البراهين القوية نقض الدكتور العث رأى جولد تسيهر وقوض كل ما بناه على رأيه من صور وهمية، وبين بعد البحث والتأمل (أن ليس من أوصاف مشتركة توحد بين أصحاب إحدى الطائفتين، فليس الفريقان حزينين اتفق أفرادهما في الرأي، واستعدوا لخوض المعركة متضامين، يناصر بعضهم بعضاً، إنما تمسكوا برأيهم عن عقيدة نفسية، أو عن ميول شخصية، أو عن ذوق خاص، أو عن عادة مستحكمة، وعندنا أن الطائفتين المتخاصمتين متفقتان بالغاية، ولو أنهما تشاحتا في القول، فكلتاهما تبغى الدفاع عن العلم والتقدم به<sup>(٢)</sup>).

بعد تلك الأخبار عن التدوين، وحرص الأمة على سلامة الحديث النبوي، لا يمكننا أن نسلم بما ذهب إليه المستشرقون، وخاصة بعد أن ظهر أمرهم على ضوء ما بيناه، فالسنة حفظت منذ عهد الرسول ﷺ في الصدور، وقيد بعضها في الصحف، وكانت محل اعتناء المسلمين في مختلف عصورهم، فتناقلوها جيلاً عن جيل حفظاً ودراسة بالمشافهة والكتابة، واجتهدوا وسعهم لحفظ الحديث بأسانيد

(١) تقييد العلم ص ٢١، ٢٢ وانظر: مقالة الدكتور العث في مجلة الثقافة المصرية العدد ٣٥٣ السنة السابعة الصفحة: ٩، ١٠.

(٢) مجلة الثقافة المصرية العدد ٣٥٣ السنة السابعة الصفحة ١٠.

فى مصنفات ومسانيد تكفل لأهل العلم معرفة القوى من الضعيف، خشية تسرب الكذب إلى حديثه ﷺ، ثم اجتهد كبار العلماء فى جمع الحديث الصحيح على أسلم قواعد التثبت العلمى، فرحلوا فى طلب ذلك، وسمعوا بأنفسهم، وتثبتوا وسعهم، وكتبوا بأيديهم، فظهرت الكتب المجردة من الضعيف وأجمعت الأمة الإسلامية - التى فهمت الإسلام واتخذته سبيلها فى مختلف وجوه حياتها - على صحة (صحيح البخارى) و(صحيح مسلم)، فإذا اعترف المستشرقون ببعض الحقيقة العلمية، وأقروا جانباً مما أثبتته المصادر الإسلامية، فلا يجوز لنا على أى حال أن نقبل ما ذهبوا إليه من طعن فى صحاح السنة، باسم طبيعة تطور الرواية أو غير ذلك، كما لا يجوز لنا أيضاً أن نقبل منهم إضعاف ثقتنا باستظهار السنة وحفظها مادام قد ثبت تقييد بعض الحديث منذ عهده ﷺ، فلا تعارض بين حفظ الحديث وكتابته، ولا يقتضى وجود أحدهما انعدام الآخر أو ضعفه.

### نتائج هذا الفصل:

- ١ - دوت أحاديث فى عهد الرسول ﷺ وفى عهد الصحابة والتابعين، ووصلنا بعضها فى المسانيد والصحاح وبعضها مستقلاً، وأشهر تلك الصحف التى دوت فى عهده ﷺ الذى أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بكتابته بين المسلمين ويهود المدينة، والصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو، وبعض صحيفة جابر، ومن أقدم ما وصلنا من عهد الصحابة صحيفة همام بن منبه عن أبى هريرة التى دوت قطعاً فى العقد السادس من القرن الأول الهجرى.
- ٢ - تجلّى لنا من البحث كثرة الكتب والمصنفات فى أول القرن الهجرى الثانى.
- ٣ - إذا صحت نسبة (مجموع زيد) إلى الإمام زيد - وهو الراجح - يكون لدينا دليل مادى قوى على ما صنف فى أوائل القرن الهجرى الثانى.
- ٤ - إن محاولة أمير مصر جمع الحديث فى العقد الثامن من القرن الأول الهجرى دليل على اهتمام ولاة المسلمين بالحديث، وحرصهم على حفظه، ومحاولة رسمية من أولى الأمر لجمع السنة قبل الزمن المشهور بربع قرن.

٥- لم تسلّم أبحاث المستشرقين من الخطأ المقصود أو غير المقصود، ولم يصب (جولد تسيهر) في تصوره واستنباطه من الأخبار الواردة في كراهة الكتابة وإباحتها، حين ظن قيام حزين متخاصمين، أهل رأى، يضعون ما ينفي التدوين ليتمكنوا من الطعن في بعض الأحاديث ورفضها حسب ميولهم وأهوائهم، وأهل حديث، وضعوا ما يروق لهم من الأخبار التي تثبت التدوين ليتمكنوا من الاحتجاج ببعض الأحاديث التي تخدم غاياتهم وأهواءهم. فعلماء المسلمين وفتهاؤهم أرفع بكثير مما تصوره (جولد تسيهر)، وقد نهجوا جميعاً المنهج العلمى الدقيق فى سبيل الحفاظ على الشريعة الإسلامية.

وبعد أن اطلعنا على تاريخ السنة، منذ عهد الرسول ﷺ حتى منتصف القرن الهجرى الثانى تقريباً، وعرفنا كيف حفظت وكيف نقلت ورويت جيلاً عن جيل، حتى وصلتنا سالمة خالصة من كل شائبة - أرى من واجبى أن أعرف بمشاهير رواة الحديث من الصحابة والتابعين، لنطلع على مكانتهم العلمية، ونعلم قيمة رجال الحديث الذين حافظوا على السنة، وصانوها عبر الزمان، ونقلوها إلينا بكل أمانة، فهم سندنا، وسبيلنا إلى الرسول ﷺ وإلى سنته الطاهرة، وهذا ما سأبحثه فى الباب التالى بعون الله.

\*\*\*